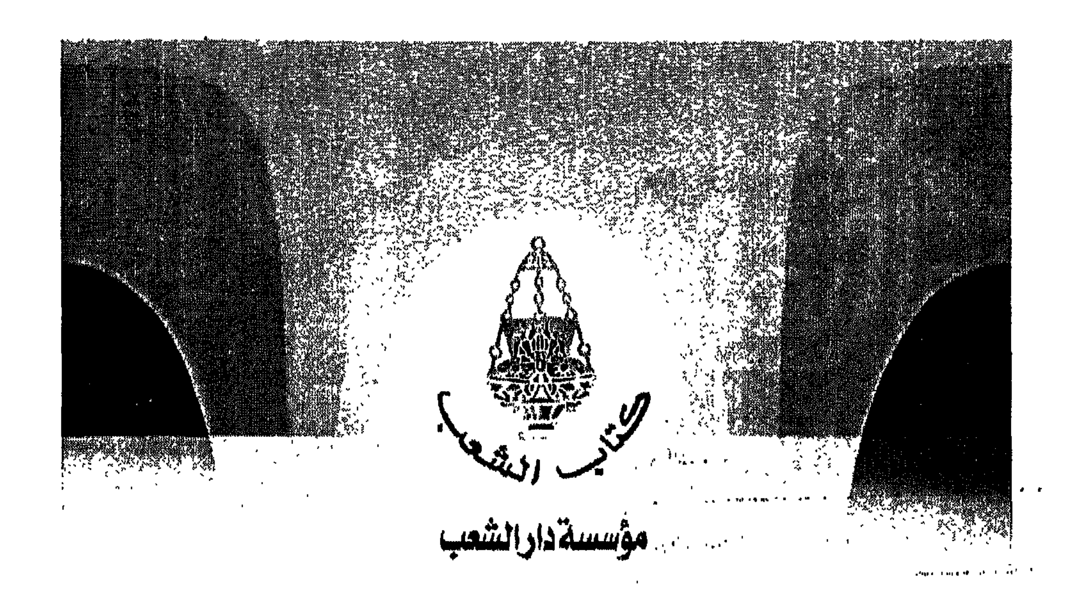


مؤسسة دار الشعب

الحريم أيام المماليك







مؤسسة دار الشعب

التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

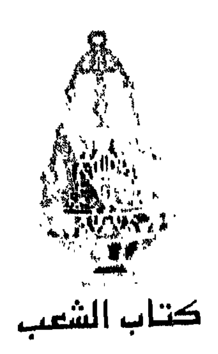
دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

■ رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير:



■ الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة .
■ قطاع النشر : ت : ٣٥٥١٥٩٩
■ الإدارة : ت : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٣٥٤٣٨٠٠ .
■ فاكس : ٣٥٤٤٨١١ - ص . ب ١٤ رقم بريدى ١١٥١٦ .



كتاب الشعب

الحريم أيام المماليك

تأليف
عبد المنعم الجداوى

* الغلاف ـــ للفنان : أســـــــامة نجيب

* الرسوم الداخلية : للفنان :

عصـــام عـــزوز

الإهـــــــداء ...

إلى كل نســـــاء مصر ..

اللاتى وهبن حياتهن للبلد ..

دون شـــــعارات أو مظـــــاهرات ..

من « حتشبسوت » إلى « كليوباترا » إلى أصغر بنت بلد فى القاهرة عامة .. وفى « الدراسة » ، « والعطوف » ، « والجمالية » ، « وباب الشعرية » خاصة .. هاتيك لنسوة هن بطلات هذا الكتاب ..

والأخيرات لهن على هذا القلم دينان ، أولهما عام ، وثانيهما خاص .. أما العام لهذا الكتاب ، ومن قبله روايتى « نساء من باب الشعرية » محاولات متواضعة لسداده ..

والخاص أسأل الله أن يسدده عنى لهن . فهو وحده القادر على منح الجزاء الأوفى ..!

عبد المنعم الجداوى



مقـــــــدمة ..

من فضلك ..!

* إذا سمحت سيدى القارىء .. حبذا لو استمعت إلىّ لأقول لك كلمة هامة عن هذا الكتاب الذى بين يديك ..

قد لا يكون خير الكتب التى تعرضت لهذا الموضوع ، ولكن من المؤكد أنه غيرها .. فهو يسجل فترة تاريخية من حياة الشعب المصرى ، وهى بشهادة علماء التاريخ جميعا من أخصب الفترات التى عبرت حياتنا ، وتركت آثارها علينا سلبا ، وإيجابا كأفراد ، وجماعات ..!

إنها ساعات تاريخية لها خصوصياتها ، ومكوناتها ، وخلفياتها ، وأشخاصها ، وامتازت بمواقعها التى دارت عليها ، فكانت الأماكن ، والساحات ، والحارات ، والأزقة ، والدهاليز ، الوعاء الذى استوعب الأحداث فى اتساق وانسجام ، وامتزاج يضم كل أبعاد الحدث ما عرفناه منها ، وما لم نعرف . يحتضن الموضوع الحدث . فيحتويه بحلوه ومره . يختزنه فى جوف جدرانه . فى ظلمته ، وأنواره .فى مآذنه الشاهقة ، ومشربياته الشامخة . فى انتظار من يعشق قراءة التاريخ المكتوب ، والمسموع ، والمرسوم ، والمهموس . بشفاة البوابات البازخة ، والأقواس الفارهة ..!

وتلك ساعات من التاريخ عبرت « القاهرة » .. كان الخوف فيها هو الحاكم المطلق ، والرعب صاحب كل السلطات ، والقلق يعربد ، يخلع الأفئدة .. يصرع العدل ، ويخنق العدالة ، ويلقى بها على جانبى الطريق ..

و« القاهرة » مقهورة تحنى هامتها .. بالكاد تستر عورتها .. تنعى ما فات .. مذعورة من الواقع .. تذوب رعبا مما هو آت ..!

والحريم .. المرأة المصرية التى أحيانا ما تكون بنت البلد ، وأحيانا جارية شربت من مياه النيل ، وأحيانا ثالثة من بنات المماليك ولدت ونشأت على إحدى ضفتى النهر المقدس النبيل .. هذه الأنثى التى تميزت دون نساء العالمين . بالرقة ، والعفة والخصوبة .. وكتب لها أن تلعب فى بعض الساعات الحاسمة ، الأدوار الأولى ، وأحيانا الأخيرة . تمارس ما

يليق بالزوجة الوفية التي تجد نفسها . حائرة بين فارسين . أحدهما زوجها ، والثانى والدها . الذى يطلب رأس زوجها .. مأساة لا تقل حجما عن المآسى الإغريقية ..!

وقد شهد « الجبرتى » المؤرخ العظيم . أن المرأة المصرية . آثرت دائما بلدها على شبابها ، وعمرها ، وافتدتها بالنفس ، والنفيس . راضية ، وأكثر من امرأة فرضت قامتها التى استطالت فوق هامات الكثير من الرجال ، وأخريات ذهبن ضحية الدفاع عن العفة ، والعفاف ، وحتى المرأة التى ضعفت ، وارتبطت مع عميل للغزاة . عادت إليها كرامتها ، واستردت اعتبارها ، ورفضت أن تغادر البلد معه لتلحق بركب الغزاة ، وفضلت أن تظل لتلقى جزاء ما ارتكبت . مفوّضة أمرها إلى أهلها فى شجاعة ، واثقة من نبل وطنها . إن شاء عاقبها ، وإن شاء غفر لها !!

وأكثر من امرأة من حريم عصر المماليك . كانت على بصيرة نافذة . تملك من العقل . أضعاف ما تملك من أنوثة وجمال . وقفت بكل كيانها إلى جانب زوجها ، الأمير أو المملوك الحائر . الذى غم عليه من توالى الأحداث ، وتعدد الصراعات فتشير عليه بأن يظل مع الصواب ، والنخوة ، والشهامة ، حتى يكون عصيا على الإغراء . أقوى من كل المغريات التى تساومه على أخلاقياته . فى أحلك الساعات التاريخية ..ويستمع الفارس إليها ، وينفذ ما تصر عليه . فيكسب نفسه ووطنه . مطهرا ، ومحررا . لا شوائب فى صدره ، ولا على أرض وطنه ..!

هذه هى المرأة التى سوف تجدها فى صفحات هذا الكتاب . نبراساً يضىء أحلك ساعات التاريخ . ومازالت بعض أضوائها فى المواقع ، والمواضع التى استوعبت الأحداث ، وكل ما فعلنا بإخلاص شديد . هو أننا قرأنا بإمعان أشد . بعض الأحداث المعدودة . فى أماكن غير محدودة .. شملت القاهرة خاصة ، وأرض مصر عامة ، وكان للمرأة فيها الدور الأول ، والأخير ..!!

عبد المنعم الجداوى

القاهرة – العباسية فى ٢٦ مايو ١٩٩٨

الحريم أيام المماليك



الغزالة



الغـــــــــــزالة

عندما يسأم القلب العزف .. يحطم القيثارة ..!!

يخنق أبدع أنغامه .. يتركها مدفونة فى الهواء ..!

فقد أدرك أنه كان يعزف لأصماء ..!

يسقط فى إحباط يرفض تجاوزه .. لا عن عجز .. ولا عن قهر ..! معتزا بنبل محاولاته .. حتى لا يذهب أسمى ما فيه بلا مقابل ..!

■ وألقت فاطمة هانم بنت رضوان بك كتخدا .. نظرة على ما حولها حاولت أن تكون شامخة .. لايجب أن يرى الناس منها إلا قوتها .. سطوتها .. عزة ابنة رضوان كتخدا الأستاذ لمئات المماليك .. الذين كانوا يجرون خلف ، وحول حصانه إذا ركبه فى احتفال .. أو ذهب به إلى القلعة .. إن ألف طعنة وطعنة وجهتها لها الأيام .. لكن لابد أن تصمد .. وصمدت طويلا .. حتى أذهلت من حولها .. ليس من حقها أن تصمد وتصمت فقط .. بل عليها أن تجعل من آلامها بسمات .. تذيب أحزانها فى اللا مبالاة .. تشغل آلامها بالذكرى .. تخلطها بهموم أخرى .. تحتضن محنتها .. تدفعها عن جبهتها .. حتى يظل جبينها موطن إشراق .. تخشى من نظرة إشفاق .. فقد تطوى شماتة مستترة ..!

وأرسلت آهة من الأعماق .. هبت جاريتها التى تجلس تحت الأريكة .. ووجهها إليها قائلة .. سلمت من الآهات والأنين .. يازينة البنات والبنين ..! أرخت أهدابها الطويلة على عينيها الواسعتين ، وتركت بصرها يتسلل إلى غزالة « محنطة » تقف فى أقصى القاعة التى تجلس فيها .. فوق قاعدة من الفضة .. وحملقت فى عينى« الغزالة » كأنها تراها لأول مرة .. ليتها تستطيع أن تستعير هذه النظرة الميتة .. النظرة الساكنة .. التى ماتت الأسئلة فيها على الحدقتين .. ورغم الموات التى هى فيه .. إلا أن البعث يرقد بارزا .. إلى جانب الموت .. هى فى حاجة إلى مثل هذه النظرة .. حتى لاتشى بها الأحزان التى تشوى أعماقها ..!!

لقد شهدت هذه القاعة .. أحلى أيامها ، ولياليها . وها هى تشهد أحلكها وأقساها .. شهدت كتب كتابها على« على أغا » الذى عينه والدها « رضوان بك » فى وظيفة سنجق وامتلأت يومها الدار بالأمراء والمماليك .. كان والدها فى صدر الإمارة ، وحضر الحفل« على بك الكبير » ، « ومحمد بك أبو الذهب » ، ونثرت الدنانير الذهبية على الرؤوس .. وحضر تلاوة العقد الشيخ « السادات » ، والشيخ « عبد الباقى العفيفي » ، والشيخ « حسن الجداوى » مفتى المالكية ، وضاقت الدار بالهدايا .. التى جاء بها الأمراء ، والمماليك والتجار ، وكبار الفلاحين .. وحمل إليها تجار الصاغة .. طربوشا من رقائق الذهب ..!

وقبل أن يتم الزفاف بأيام وقعت الواقعة .. وصارت ذريعة الخلاف بين « على بك الكبير » ، « وأبو الذهب » وانقض هذا على ذاك ، وبطش المماليك بيعضهم البعض .. وفر« رضوان بك الكتخدا » والدها ، ومعه « على أغا » « سنجقه» إلى « بغداد » تاركا خلفه كل حريمه وأهله .. وحوصر القصر بجاويشية « أبو الذهب » وهموا بنهبه أسوة ببقية قصور الأمراء الفارين .. لكنها تصدت لهم ، وواجهت كبيرهم .. بأنه قد يدفع رأسه ثمنا لأى خطأ يرتكبه أحدهم .. فقد حصلت على الأمان من « محمد بك أبو الذهب » ، ولم تكن رأته أو تحدثت إليه .. إلا فى حفل عقد قرانها .. وتراجع كبير الجاويشية .. ظل يحرس القصر من موجات الفوضويين .. حتى أقبل الليل .. فلما دخل يستأذنها فى الانصراف .. أمرت لهم بالعشاء ، وكانت قد جهزته ، وأمرت له مع جنوده بعشرة أكياس من الدنانير .. فظل فى الحراسة حتى الصباح .. وحينما علم« أبو الذهب » بالقصة .. أعجب بذكائها وصدق على روايتها ..!

وشغلته هموم الحكم .. فقد خلا له الجو ، وأصبح صاحب الأمر كله ، وشيخ البلد الذى لاينازع .. فنسى القصة برمتها .. وكان قد برز من بين مماليكه « إسماعيل أغا » الذى راح يتتبع أعداء سيده ، ويوقع بهم واحداً بعد الآخر .. إلى أن انتهى به الأمر إلى أكبر منصب فى البلد بعد شيخها .. نودى به « كتخدا » وأصبح الوزير الذى يحرك كل العسكر من كل الأجناس ، وتدين له جاويشية البلد ، وقادة « اليكنجرية » .

وفوجىء « محمد بك أبو الذهب » برسول قادم من « بغداد » من عندنا « رضوان الكتخدا » السابق ، وكيلا عن « على أغا » الذى فر معه .. يحمل عشرة آلاف دينار من الذهب ، وعدة قناطير من البن ، والسكر ، والأقمشة .. لكى يرسل إليه « فاطمة هانم » .

هنا فقط تذكر « محمد أبو الذهب » القصة ، واسترجع فى خياله ذكاء ، وفطنة هذه الإنسانة التى لايجب أن تخرج من مصر .. فاجتمع بالمشايخ الذين حضروا عقدها ، وقال لهم إنه لايريد أن يرسل ابنة « مصر » إلى « بغداد » .. لأن هذا الزوج الذى تركها

وفر لا يليق بها .. ولا يستحقها .. ولو أنه جاء يطلبها بنفسه لما حجبها عنه .. لكن أن يظل هناك ، ويرسل فى طلبها ، وهى على هذا الجمال ، والذكاء .. فإنه يرى أنه لايستحقها .. وأفتى الشيخ مفتى المالكية .. بأنه من حق ولى الأمر أن يفسخ عقد النكاح لعدم التكافؤ ..وعاد الرسول إلى « بغداد » ليقول لمن أرسله .. إن«فاطمة هانم» طلقت منه ..!

وذهب إليها « محمد أبو الدهب » .. جاء إلى هذه القاعة وبرزت إليه من خلف التل (الدانتلا) الأبيض .. فلما أبلغها أنه فعل كذا وكذامن أجلها فما هو قولها ..؟ قالت بجنان ثابت .. لقد صدقت على قولى الذى قلته عنك .. وهو ضد مصلحتك .. أفلا أصدق على قولك فى ، وهو فى مصلحتى ..؟ !

لو أن الرسول جاءنى .. ما قلت له غير هذا الذى قلته .. وإنى لأشكر لك اهتمامك بى ، وحرصك على كرامتى .. وإذا لم يرع الأمير الكرامات فمن يرعاها ..؟

« أبو الدهب » الذى فاق أستاذه«على بك الكبير » فى الدهاء .. والذى أخضع الجزء الأكبر من الشام ، وأرسل من جماجم أهل« عكا » سبعة جمال .. ارتج عليه وهو يستمع إلى ردها .. ولولا أن له أربع زوجات لتزوجها ..فهو لايرضى لها أن تكون محظية أو من السرارى .. وتمنى لو أنه استطاع أن يقول لها ذلك . غير أنه خشى أن يجرحها أو يخدش مشاعرها ..!

وفجأة وهو يبحث عن كلام يختم به حديثه .. تذكر أن وزيره«إسماعيل بك الصغير » ، وكتخداه غير متزوج .. فقال لها .. إنه يخطبها إذا قبلت« لإسماعيل بك الصغير كتخدا » مصر ، وتلميذه ، وله عنده منزلة الابن ..!

فقالت .. إنها تسأل الله أن يطيل عمر الأمير .. حتى تنتهى أيام خروجها من العقد القديم .. ثم هى بعدها واحدة من رعايا الأمير .. يرى فيها مايراه ..!

لم يكن ذلك الذى يعتصر الأمير .. وأطبق على ملامحه ..ليخفى على ذكاء مثل ذكائها .. وكان بوسعها لو أرادت .. أن ترفع رموشها فترميه فى أعماقه .. ثم تسحبهما فإذا بدماء قلبه .. تسيل حتى تصبغ ملابسه .. فيجثو على ركبتيه .. يسألها أن تتزوجه هو .. لا تتزوج وزيره .. لكن لحظتها .. لن تكون « فاطمة هانم رضوان » التى عاشتها .. « فاطمة » التى رقصت القاهرة يوم عقد قرانها .. ولن تكون جديرة بأن تصدر أوامرها إلى كبير الباشجاويشية فيصدع به ، ويخالف أمر « أبو الدهب » .. إن فعلتها فما كانت تصبح جديرة بأن تكون ذاتها ..!

هى تعرف أنه لا يقف فى طريقه إلى أهدافه شيء .. لكنه نشأ مدللا .. أعطاه « على بك الكبير » كل شيء ، وأمره فى كل شيء .. دون مماليك مصر .. كان

لا يحمل فى جيبه إلا الذهب .. تجرى وراءه كل الدنيا ، ولا يجرى خلف شىء .. اعتاد أن تأتيه الدنيا طائعة .. فكيف يسعى هو إليها ، ويطلبها ..؟ أليس فى طلبها لوزيره زمزية .. يختفى خلفها .. حتى إذا رفضت .. فهى رفضت « إسماعيل بك » وإذا قبلت ... كان له معها شأن آخر ..!!

وهرع يخرج .. كأنه يهرب من خطر .. خطواته الثابتة لم تعد هى .. لو بقى يراها من خلف « التل » الأبيض .. وذلك القوام الرائع ، والتكوين البديع .. ولو أنها رفعت وجهها ، وعاجلته بنظرة من عينيها .. وزحفت عليه بشخصيتها الواقفة .. لسقطت مشيخة البلد ..التى كان لا يجرؤ على أن يحلم بها « رضوان بك » .. لعبة فى يد ابنته ..!! هنيئا لك يا « إسماعيل بك » ..همس بها لنفسه .. وعند باب القصر ، وهو يهم بركوب حصانه الذى أمسكه له الخدم .. كان يتكلم مع نفسه .. لو أنها أبدت نحونا عطفا .. لأوليناها حبنا .. أما نحن فلا يجب أن نبدأ ..!

وظلت ساعات طويلة تفكر .. لكنها فى النهاية .. اقتنعت بما فعلت .. فهى عنيدة .. شامخة .. ترى أنها فوق الجميع .. « وأبو الدهب » له نفس الأخلاق .. لهذا لم يلتقيا .. من المؤكد أن وزيره يختلف عنه .. لو كان مثله ما استوزره .. لذلك تشعر أنها سوف تكون سعيدة .. مع الآخر .. لأن كلمتها سوف تكون العليا ..!!

وبدأت تصلها أخبار« إسماعيل بك » . إنه قرة عين « أبو الدهب » .. دموى .. قاتل .. مثله فى ذلك مثل بقية المماليك .. لكنه رائع الطلعة .. جميل التقاطيع .. باهى اللحية .. لبق الحديث .. كان يختاره « أبو الدهب » ليكون رسوله إلى الآخرين .. الذين يريد أن يستميلهم إليه .. واسع الحيلة .. داهية فى التفكير .. لو سارت الأمور فى مجراها الطبيعى .. لتولى مشيخة البلد .. بعد أستاذه .. إن لم يكن بالحيلة .. فبالقوة ..!

وانتهت أيام العدة .. وكان « أبو الدهب » قد حدث « إسماعيل بك » عنها .. فجن جنونه ، وأرسل إليها .. فلم ترده ، وشهد الحفل « أبو الدهب » شيخ البلد ، وكان لها شرط واحد .. هو أن تظل فى قصر والدها فى « الأزبكية » .. وشهدت هذه القاعة أعظم فرح حضره شيخ البلد .. وظل« المشاعلية » يحملون الشعلات حول القصر .. حتى أذن الفجر .. ووزع على الفقراء مائة قنطار من الحنة ، وألف قنطار سكر ، وذبحت مئات العجول ، وعاشت القاهرة ثلاثة أيام من ألف ليلة وليلة ..!

وعلا ذكر « إسماعيل بك » ، وجرى اسمه على كل لسان .. وأحست « فاطمة هانم » أنها تشترى سعادتها بأيام التعاسة .. وليالى الخوف الطويلة .. التى عاشتها بعد فرار والدها .. وعملت على دعم مركز زوجها ، وتوطيد اسمه .. فقد كانت ذات نشاط ضخم بين زوجات الأمراء تهدى عظيم الهدايا فى المناسبات ، والأعياد .. وتكسو مئات

الفقراء إذا أقبل رمضان ، وتطعم الآلاف إذا جاء عيد الأضحى .. باسم« إسماعيل بك الصغير » كتخدا مصر ..!

جعلت من أيامها معه ألحانا .. تعزفها من ذاتها لذاتها .. تنشده حباً صباح مساء .. لو أنه لم يكن أصم العواطف .. لتحول إلى شاعر .. رقيق الأحاسيس .. فريد الخيال .. يرى فى النجوم معزوفة ، ويرى فى الوردة عين الشمس .. لكنه تشغله أمور الحكم .. وتأخذه من نفسه محاذير المؤامرات .. يأكل كخنزير ، وينام كثور .. لا يلتفت إلى شذى الزهرة الفواح التى حبست نفسها فى القصر ..!

وشقت عينها دمعة.. مضت وهى لاهية عنها .. فسقطت على يد الجارية .. ففزعت ألما للزهرة .. قالت فداك روحى سيدتى ..تبكين ..؟ أجفلت كأنها ضبطت فى عار .. صاحت فى لهفة .. عينى توجعنى فتدمع .. أنا لاأبكى .. أنا لاأبكى ..!

تركتها الجارية وانصرفت كانت تعرف أنها تأنف .. أن يرى الآخرون دموعها .. لكنها كانت تبكى .. وداخلها كان يبكى أضعاف خارجها ..!

فرغم أنه لم يمض على زواجها منه أكثر من عامين .. إلا أنه يفكر منذ أسابيع فى الزواج بزوجة أخيه الذى مات عنها .. وقد كانت قبل زواجها من شقيقه محظية لوالدها « رضوان بك » وعلمت أن « محمد بك أبو الدهب » حاول أن يثنيه عن ذلك .. وقال له إن« جلسن هانم » قد ترفض .. لأنها لاتريد أن تؤذى ابنة سيدها .. وقد يضايق ذلك « فاطمة هانم » .. لكنه أصر على بلوغ أهدافه .. وذهب يخطبها فامتنعت لكنه حاصرها فوافقت .. فلما أقبل ينقل إلى « فاطمة هانم » الخبر .. تلقته ببرود كلفها كل أعصابها .. وقالت له .. تسألنى إن كان ذلك يغضبنى أم لا ..؟ !

يجب أن تعلم أننى تزوجتك صدقة عن نفسى ، وزكاة عن جمالى .. والمتصدق لايندم .. اذهب فتزوج كما تريد .. بمن تريد .. لكن لاتدخل بها قصرى .. فقد كانت هنا « محظية » مكانها مع الجوارى ..!!

وأعلنت الحرب بينهما فى صمت .. هى لاتريد .. لأنها ترى أنه لامعركة ، وأنه أتفه من أن يكون خصما .. تقتله باحتقارها له ..يكاد يجن .. تلقاه بازدراء يقض مضجعه ، وتشيعه باشمئزاز يربكه طول يومه .. فوجئت منذ يومين بجاريتها .. تدخل عليها باكية .. وتطلب منها أن تحمى عنقها من القتل .. فلما حملقت فيها مذهولة .. أخرجت الجارية ورقة من صدرها .. بها مسحوق أبيض .. قالت إن سيدها « إسماعيل بك »

وعدها إن دست هذا لها فى الطعام .. أعتقها وزوجها بأحد المماليك .. لكنها لاتستطيع .. وإذا علم أن سيدتها عرفت .. فلا عقاب لها إلا الموت ..

أخذت السم من يد الجارية .. وقالت لها .. قولى له إنك أديت المهمة ، وطالبيه بالثمن .. وبعد أيام ماتت « فاطمة هانم رضوان » .. ولم يعرف أحد كيف ماتت .. ولعلها أدركت آخر الأمر .. أنها تعزف لأصماء ، وأنست إلى الإحباط ترفض تجاوزه .. معتزة بنبل محاولاتها .. حتى لايذهب أسمى ما فيها بلا مقابل ..فالحياة فى نظرها لم تعد جديرة بالنضال فى سبيلها ..!!

★ ★ ★

الحريم أيام المماليك



ممنوع الحزن



ممنـــــــوع الحـــــزن

منذ ثلاثة أيام يدور القتال .. القنوات امتلأت بالدماء .. والحقول هذا العام سوف تكون سنابلها دامية ، وكروم العنب سوف تطرح حنظلاً ، وأحواض البطيخ ستكون ثمارها بعض جماجم الرجال .. وأنا مطحونة بين آلاف المشاعر .. فى النهاية لابد أن أصير إحدى امرأتين .. يتيمة قتل زوجها والدها .. أو أرملة قتل والدها زوجها ..! لابد أن يقع الضرر ، وليس لى أن أختار ..

وفى الحالتين لا حق لى فى الحزن ، ودموعى يجب أن تكون بمقدار .. فقد يثير القاتل حزنى على القتيل .. فيظن أننى بعواطفى كنت أتمنى أن يكون هو المقتول ..!

زوجى « أيوب بك » حاكم « جرجا » المرسوم من قبل أستاذنا « على بك الكبير » ، وأبى « محمد بك أبوالدهب » .. تلميذ « على بك الكبير » .. الذى خرج على طاعته ، وجاء إلى الصعيد يتحصن به .. مع كثير من تلاميذه الذين التفوا من حوله .. حاكم « المنيا » ، وحاكم « أسيوط » ، وعرب « أسيوط » .·. وحينما وصل إلى « جرجا » كانت رياح الخماسين قد سبقته .. ألهبت بصفعاتها وجوه المزارعين ، ووصلت الأخبار عن اجتياح « والدى » للأراضى .. كما يجتاح النيل الأراضى .. فقط فى هذه المرة كان النيل قادما من الشمال إلى الجنوب !!

جاء زوجى يسألنى الرأى .. العساكر التى كانت لديه ، والمئات من الكشاف .. هربوا إلى الجنوب ، وبعضهم مضى إلى الجبل الغربى يسلب ، وينهب .. فقد أدركوا أنهم لن يعودوا .. وفى قلبى تمتزج فرحتى بنصر والدى .. بشقوتى لورطة زوجى .. فالأمر يضيق علينا .. كل يوم يغلق من حولنا باب .. والإنكشارية الذين يسوقهم أبى أجلاف مجانين .. لصوص فى ملابس جنود .. يحطون كالجراد ، ويمضون كالشياطين .. وقلت له .. إنه صهرك وسيفه فى يده .. « وعلى بك الكبير » .. أستاذك وصاحب نعمتك .. لكنه فى « القاهرة » .. ثم لابد أن تتذكر .. أن « على بك » لم يكن يعرفك ، والذى جعله يوليك هذا المنصب .. هو « محمد أبوالدهب » .. فأنت مدين له بهذا .. ولم تصلك أوامر صريحة بشأنه .. فإذا قاومته .. فقد يهزمك ، ويخلعك .و .. و .. فقد

دانت له الولايات من « بنى سويف » حتى « أسيوط » .. أرسل إليه بالأمان ، واخرج لتلقاه بالأمان ، وقل له إننى أريد أن أراه ، وأقيم له « السماط » .. وأنا على ثقة من أنه سوف يجيبك .. لا تجعل بينك وبينه رسولا .. التق به كصهر وزوج ابنته .. وإلا كفارس لفارس .. وها هى ملابسى السوداء ، على طرف الصيوان ..!

أبى أعرف سيفه جيدا ، وزوجى أعرف طبعه .. إنه فارس الفرسان .. لكن ليس أمام أبى .. فهو أستاذه الذى علمه ، وتعهده حتى ثبت على ظهور الخيل .. ولم يكن ولاؤه « لعلى بك » إلا من خلال ولائه لوالدى .. وحينما تزوجنى أهدى إلى « على بك » ما شاء الله من الذهب .. ووهب زوجى ولاية « جرجا » .. كان يمكن أصابعه بذلك من قلب أبى .. فقد كان تلميذه ، ووزيره ، وفاتح الولايات باسمه ..

لكن الخلاف دب بينهما ، كان لابد أن يدب .. « على بك » ماكر ، وفارس ، وطموح .. لكن أبى فارس جسور ذكى .. أصر الأمير على خروجه على رأس حملة تأديب الشام فخرج .. قاد الحملة من نصر إلى نصر .. فلما خضعت المدن ، واستتب الأمن ، وقطعت أكثر من ستة عشر رأسا للعصاة ..أرسلت على جمل « لعلى بك » .. أرسل والدى يستأذن فى العودة .. فأرسل إليه برجوع البريد .. يطلب منه أن يسير إلى مدن جديدة ، وأن يفتح له بلاداً أخرى ، وأن يبقى حيث هو مع رجاله ، لكن الحملة كانت قد استغرقت ستة شهور ، وضج القواد والمقدمون يريدون العودة إلى بيوتهم فى مصر .. وكان أبى قد وعدهم بذلك .. فرفض أن يمتثل للأمر ، وأعلن فى الحملة أن تستعد للعودة !!.

لم يكن متمردا .. بقدر ما كان إنسانا – لم يتجاهل الشوق فى عيون الرجال – ولم يكن فى وسعه ، ولم يصم أذنيه عن تنهدات الزوجات والأمهات التى كانت تصدر من الرسائل ، ولم يكن فى وسعه .. أن يغلق فؤاده عن نداءات الأبناء والبنات ، وكان أبا ، وزوجا ، ولم يكن فى وسعه ، ورفض أن يلقى العدو وفى عنقه ذنب كل هؤلاء .. يدفع بهم وقودا لحرب يريدها « على بك » .. هدفها الحقيقى إبعاد كل الأقوياء من حوله لينفرد بمشيخة البلد .. فلا يحدثه مخلوق فى شأن من الشئون .. وآثر أن يغضب عليه « على بك » ، وأن يكسب فى كل الحملة رضاء الله .. فعاد ..!

استقبلت المحروسة الحملة بالزينات التى لم يأمر بها « على بك » .. لكن بيوت المحاربين العائدين زينت ، ودقت الدفوف ، وأضيئت المشاعل ، واضطر « على بك » إلى استقبال الفاتحين .. متجاوزا عن العصيان .. صيانة لمهابته ، وفى الحفل أعلن أن المحاربين يقضون شهر رمضان الذى كان على الأبواب فى دورهم .. ثم يتجهزون للخروج مرة أخرى .. بنفس القواد ، والأمراء ، والنقباء .. وأظهر والدى الطاعة ، وأبدى

« على بك » القبول ، لكن كلاهما كان يسر أمرا فى نفسه .. فكلاهما يفهم الآخر حين يصمت .. أكثر مما يفهم من كلامه .. انطوت القلوب على أحقاد أجنة .. مالبثت أن نمت ، وربت .. فأدنى « على بك » منه أمير بطانته « على بك الطنطاوى » ، وأسر إليه أن يغلق أبواب المحروسة الليلة ، وأن يصدر أوامره المشددة بعدم خروج أو دخول أى مخلوق إلا بأمر منه .. وأن يجهز بعض المماليك ، والباشجاويشية لمحاصرة كبير من الكبراء .. والقبض عليه ، ونهب سرايته .. فإذا جهز كل ذلك فموعدهم قبل الاستعداد لصلاة الفجر .. يستأذن عليه .. وسوف يكون فى انتظاره .. ليقول من المقصود .. ويعطيه التعليمات الأخيرة ..!

ولم يكن « الطنطاوى » غبيا ، ولكنه تغابى ، وخرج ينفذ الأوامر فى تكتم شديد .. لكن عيون أبى التى فى قصر الإمارة .. أرسلت إليه بالإنذار .. كان لأبى على كل عنق يد .. أركان قصر الإمارة .. كانوا تلاميذه .. فأسرع يجهز للهرب ، وعند الباب المؤدى إلى ناحية « البساتين » اعترضه الحراس ، ورفضوا أن يفتحوا الباب .. فنادى كبيرهم وهو على حصانه ، وصاح فيه أنه لابد أن يبلغ الأمير « على بك » رسالة خطيرة الآن .. فارتعد كبير الحراس ، وفتح البوابة ، وانطلق أبى إلى البساتين .. ثم إلى الصعيد فانحاز إليه تلاميذه من حكام الأقاليم ، والعرب ، والهوارة ، وجاء إلى جرجا ..!

خرج زوجى « أيوب بك » ليلقاه .. لم يكن هناك مفر من لقائه .. وصعدت السطح أرقب مع بعض الجوارى ماذا سوف تأتى به الساعات .. لأول مرة أرى نجوم الليل لا تضىء .. كانت كمسامير دقت فى نعش أسود كبير .. والريح تعوى مولية كأنما تلهب ظهرها سياط الشياطين .. والقلق يحرث أعماقى ذهاباً فيزرعها حيرة .. فتنبت وأحصدها قبل أن يؤوب ..!!

ومن الصباح الباكر .. مشت الطوابير تتبختر .. ودقت الطبول ، وسار الخيالة على عزف البروجى ، وجاءت موسيقى أبناء البلد ، ورقص فرسان العرب بالخيول .. وكان الاستقبال يليق بوالدى ، الأمير « محمد بك أبوالدهب » .. واستقبلت فى الحريم عشرات السيدات .. حملن الهدايا الثمينة بمناسبة وصول والدى .. وأقبل نحو الظهر تسبقه .. كوكبة من الفرسان ، والمشاة ، والموسيقى .. يتقدم الركب لاعب ماهر بالنقرزان ، وآخر يلقى بالدبوس فى الهواء ويتلقاه ببراعة ، وانطلقت الزغاريد من النسوة على طول الطريق ..!

وبعد الغداء .. دخل على الحريم .. وملت أقبل يده ، وكما توقعت أمسك رأسى بكفيه وقبلنى بين عينى .. وملأت عينى من وجهه الجميل الفخم ، وألقيت بنفسى فى بحر عينيه الجسورتين اللتين ترسلان مهابة ، وحبا ، وصلابة .. تخلع أقوى القلوب ..

واستبقى رأسى بين كفيه بعض الوقت فأحسست بالأمان .. لكن مكنونات قلبه كان قد أغلق عليها ..!

قلت له وأنا أبتسم فى ارتباك .. أبى هب لى زوجى .. حدجنى بنظرة نعومتها على قدم المساواة مع شراستها ، وجسارتها ، وقهقه قائلا .. لا تخافى عليه ما دام لا يخون .. الخيانة هى التى تقتل صاحبها ..!! ثم قهقه ثانية ، وأردف يقول .. هل أشرفت بنفسك على الطعام ..؟ ففزعت واستنكرت بعينى .. ثم ملت على يديه أقبلهما من جديد .. وأحزننى أن يسأل أب ابنته هذا السؤال .. لكنها المؤامرات ، وأبى قد قاسى منها كثيرا ، ومارسها أكثر ..!

بعد أيام دخل على « أيوب بك » .. يقبض على رسالة كأنه يمسك بجمرات .. قالت لى ملامحه أنه يعانى من أزمة حادة .. عرفت أن « على بك » أرسل إليه مع البريد رسالة يقول له فيها إن عليه أن يقبض على « أبوالدهب » بكافة الطرق .. ثم بعدها إما أن يرسله حيا مقيدا فى الحديد .. أو يرسل رأسه إذا تعذرت عليه الأولى ..

كتب أمره ودفع به إلى رجل البريد وحذره من أن يراه أحد .. وحاول أن يجارى « على بك » فيما يرمى إليه .. وطمأنه إلى أنه يتربص ، وينتظر الفرصة المواتية .. ولم يكن يعلم أن والدى قد بث عيونه على طريقته من أول « الجيزة » .. حتى مقره على مشارف « جرجا » . وأنه قرأ الرسالة القادمة من « على بك » قبل أن تصل إلى يده ..!، وأنه كان ينتظر الرد ليقرأه أيضا ..! وظن زوجى أنه بعودة البريد انتهت أزمته ، وخرج منها بمشورتى ..!!

فى الليلة الثانية دعاه أبى لكى يسهر معه فى الخيام التى أقامها .. وجاءنى ليقول لى إنه سيركب فى رجاله إلى هناك .. اصطحب معه كبير عسكره ، وخازنداره ، وسنجقه ، وحراسه المقربين ، وذهب إلى خيام « محمد بك أبوالدهب » .. وتحدثا فى أمور كثيرة .. وإذا به يفاجئه بسؤال غريب .. هل مازلت على عهدك الذى قطعته على نفسك يا أيوب بك ..؟ وذهل .. ثم نظر فإذا به لم يعد سواهما فى المجلس .. كل رجال « أبوالدهب » انسحبوا ، ورجاله أيضا لا يعرف أين ذهبوا .. كان الرجل الداهية .. قد أوكل رجاله برجاله .. الخازندار بالخازندار ، والسردار بالسردار ، وهكذا .. ضاع لعابه من فمه .. إلا أنه استمسك بأهداب الشجاعة ، وأجاب .. أنه مازال وسوف يظل على العهد .. وكان الرجل يتفرس فيه بالعينين الجسورتين المخيفتين .. ثم سأله سؤالا آخر .. وما جزاء من يخون العهد ؟ .. أجاب فى حماس ليغطى اضطرابه .. تقطع يمينه التى مس بها المصحف ، ويقطع لسانه الذى أقسم به .. فقال الرجل على الفور .. لقد حكمت على نفسك .. قبل أن تطرف عينه امتلأت الخيمة برجال أشداء انقضوا عليه ..!!

وكنت يقظة ، والحلم يغزو عيني .. يغلقها عن أى شيء دونه .. ورأيت عنق « أيوب بك » الجميل ، والسيف يهوى عليه ، وسمعت صرخته .. حتى خيل إلى أنها هزت مخدعى ، وسمعتها كل الجوارى .. فأطلقت صرخة مروعة ، وقمت واقفة .. فوقفت الجوارى ، وهن .. يحطن بى ، وأقبلت جاريتى الخاصة مربيتى التى انتقلت إلى بيت الزوجية معى .. سألتهن .. سمعتهن يجبنها .. بأننى كنت أجلس بينهن أستمع إلى أحاديثهن ، وفجأة حدث ما حدث .. أخذتنى إلى حضنها .. قرأت فى أذنى « الصمدية » . و « الفاتحة » .. وقلت لها ما أفزعنى فى كلمات متقطعة ، ظلت بجانبى ، وراح الليل يتساقط لحظة بعد لحظة .. وطلع الفجر ، ولا خبر ، والغموض لا يريد أن يترك الليل يمضى .. وفجأة امتلأ الجو ضجيجا ، وصعدت إلى الحريم قعقعة السيوف ، وطلقات رصاص ، وصرخات جوارى من الخادمات .. وحملنى قلقى ، ودفعتنى حيرتى إلى الشرفة .. كان بعض رجال والدى ينهبون قصرى .. وتراجعت ويدى على قلبى .. فقد خشيت أن يقفز من ضلوعى للصدمة ..!

جاء والدى يقدم لى العزاء .. قال .. لقد قتلته خيانته ..! تلقى رسالة ولم يقل لى ..! ألقيت بنفسى تحت قدميه .. كنت بلا وعى تماما .. والحزن فى ليلة واحدة دمر نضارتى والصدمة أسقطت حرصى على احترام أبى .. تعلقت بملابسه .. جذبته حتى كدت أمزقها .. وأنا أصيح !

أنا التى رجوته أن يخبىء عنك خبرها لأنك لن تصدق أنه لن يخونك ..!! وانكفأت أعض الوسائد .. فقد شاركت أبى فى قتل زوجى !!



★ ★ ★





امرأة من الحسينية ..!



امرأة من الحسينية

الأنفاس محبوسة والأفواه مغلقة ، والعيون زائغة ، والبصر يتعثر .. يسقط فى ضوضاء بصرية هنا .. وهناك .. خيول يركبها فرسان .. تشق السوق ، وتدوس الناس ، وتروع الأطفال ، والنساء ، والأبرياء يجرون بكل قوتهم ، والضعفاء يتساقطون تحت سنابك الخيول ، وغزاة يجردون التجار مما يملكون ، وحوانيت تقتحمها الجنود ، ونسوة يصرخن من خلف المشربيات .. فعيونهن تقع على رجالهن فى أيدى كلاب « أحمد أغا » المسعورة ، والسياط تعلو فرقعاتها على أصوات النحيب . وأفراد ينطلقون بكل قواهم .. تطولهم السياط .. فيسقطون ، ويتعثرون ، وهم يصرخون .. ودماؤهم تتناثر فى الجو من أطراف السياط .. التى يزهو بها الجنود .

وهبت « الحسينية » التى أخذت على غرة .. لكنها مازالت تحت وطأة المفاجأة .. أغلقت الحوانيت التى لم يصلوا إليها .. أما التى دخلوها فلم يتركوا فيها ما تغلق عليه .. وحاول البعض الهرب إلى « باب الفتوح » لكن الجنود كانوا يحكمون الحصار .. وباءت المحاولات بالفشل ، وبآثار « الكرابيج » على أجسادهم .. واتجهت ثلة من الجبنة إلى بيت« أحمد الجزار » شيخ « البيومية » ، ولم يكن الباب الكبير مغلقاً .. فلم يكن بيت شيخ « البيومية » يغلق ليلاً أو نهاراً .. فاقتحموه ، وانطلقوا فى أنحائه ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم ، وهم يجأرون فى طلب الشيخ .. الذى أيقن أنها النهاية .. فلم يشأ أن يتصدى لتلك العاصفة المجنونة .. ففر من باب خلفى ..!

بعض أهل « الحسينية » كان يدرك السبب ، والبعض كان لا يعرف على وجه التحديد .. فالغارة من جنود الكاشف على أى موسر .. لم تكن أبداً فى حاجة إلى سبب .. فكثيراً ما تكون للسلب والنهب فقط ، أما هو فكان يعرف ، وكان يتوقع هذه الغارة .. لكنها جاءت مبكرة ، وسريعة ، ومفاجِئَةً ..! فبالأمس فقط .. أنقذ جندياً من أيدى أبناء « الحسينية » ، وفتواتها بعد أن أوشكوا أن يقتلوه .. فقد رأى الجندى أرملة كانت عائدة من مقابر « باب النصر » .. وسار خلفها ، وطلب منها فى عربية ضعيفة . مما يؤكد أنه أعجمى « فطيرة » من فطائر « المقابر » .. فلما توقفت وأعطته « الفطيرة » لمح جمالها . وقوامها الممشوق ، فظل يطاردها حتى وصلت إلى بيتها فى حارة « البيرقدار » .. فلما زجرته ، ونهرته .. دخل فى قلبه أنها تتدلل .. فاقتحم عليها البيت ، وحينئذ لم تجد مفراً من الاستغاثة بصوت عال .. فتقدم هاجماً عليها يبغى كتم

صوتها جاعلاً يده على فمها ، وخرج عليه نساء الحارة ورجالها ، فأوسعوه ضرباً ، وأوثقوه فجعلوا يديه خلف ظهره ، وساقوه أمامهم إلى شيخ البيومية .. فقد خشوا قتله حتى لا تحرق بيوت الحى كله بسببه .. ولما مثل الجندى المتهم بالهجوم على الأرملة بين يديه .. فكر فى العقاب الذى يجب أن يوقعه عليه ، وأخيراً أمر بأن يجرد من حذائه ، ومن « طرطوره » الذى يرتديه على رأسه ، وأن توضع قدماه فى « الفلقة » ، ويضرب بالعصى حتى إذا ما ذهب إلى زملائه .. كان ذلك درساً لهم فلا يطارد أحدهم امرأة من « الحسينية » .. وقد تمر هذه المسألة دون انتقام من الحى .. حفاظاً على هيبة الجنود التى هى جزء من هيبة الكاشف .. إذا ما كتم الجندى رغبته فى الانتقام ، وأخفى القصة كلها احتراماً لذاته ، وهو احتمال ضعيف .. لكن الأقوى ، والمتوقع أن رؤساء الجند ، والكاشف ينتقمون من الحى خلال الأيام الثلاثة القادمة ..!

أما أن يقع ذلك فى صباح اليوم الثانى .. فذلك ما لم يكن فى حسبان الشيخ « أحمد الجزار » .. الذى استطاع أن يفلت من الحصار المضروب حول بيته ، وأن يقتحم شارع « الحسينية » .. فإذا بالناس فيه .. بين متقوقع فى البيت يحوقل ويبسمل ، وبين مذهول يرى حانوته ينهب ، وهو لا يدرى ماذا يفعل .. وصاح فيهم أن يتجمعوا ، وأن يحمل الرجال العصى ، والنبابيت ، وأن تحمل النساء الأحجار ، وأغطية الأوعية النحاسية ، وأن ينصرف جماعة إلى دق الطبول بعنف حتى يعرف أبناء « باب الشعرية » فيغلقوا حوانيتهم ، وينضموا إليهم .. وخلال دقائق معدودة .. كانت أوامر الشيخ تنفذ بدقة .. وفوجىء الجنود بقيامة أهل « الحسينية » تقوم ضدهم .. انهالت الأحجار عليهم من كل مكان وانشقت الأرض عن أطفال ونساء يلطمون الجنود بالأوعية النحاسية ، يقذفون وجوههم بالمياه المذابة فيها الشطة بكميات رهيبة ، وانهال عليهم الشباب ، والرجال بالعصى ، وعلت الطبول تصم الآذان ، ولم يسع الجنود ، وعلى رأسهم « أحمد أغا » إلا الهرب ..!

لكن « أحمد الجزار » شيخ البيومية لم يتوقف ، وقاد حملة الطبول ، وحملة العصى ، والنبابيت نحو « بيت القاضى » .. فأغلقت حوانيت الصاغة ، وانضم إليهم تجار الموسكى ، واتجهوا إلى الجامع الأزهر .. فنادوا على المشايخ أن يوقفوا حلقات الدروس ، وأن يعطلوا كل شيء فى الأزهر .. وصعد حملة الطبول إلى المآذن ، وراحوا يدقون بالطبول .. فأغلقت الحوانيت التى لم تكن أغلقت ..!

واجتمعوا حول الشيخ « العروسى » شيخ الأزهر ، وطالبوه بأن يذهب إلى « إسماعيل بك » ويطلب منه خلع « أحمد أغا » من الولاية .. فوعدهم أن يركب إلى « إسماعيل بك » إذا انصرفوا .. فأصروا على أن يركب الآن وفوراً على أن يرافقه وفد

منهم على رأسه « أحمد الجزار » فإما أن يتغير ذلك الوالى « أحمد أغا » ، وإما أن يتحمل « إسماعيل بك » مسئولية ما يحدث ..!

ولم يجد الشيخ « العروسى » بدأ من الركوب معهم ، وساروا بقضهم ، وقضيضهم إلى قصر « إسماعيل بك » ..الذى اعتذر لهم بأن « الوالى أحمد أغا » ليس من جماعته ، وإنما هو من جماعة « حسن بك الجداوى » ، وهو الوحيد القادر على عزله ، وتولية غيره .. فالأمراء لايتعدون على اختصاصات بعضهم البعض ، وكل له رجاله الذين يوليهم ويعزلهم ..!

وهرع الموكب كله لم يتخلف منه رجل إلى سراى « حسين بك الجداوى » فكان جوابه أنه لن يعزل واليه .. إلا إذا عزل « إسماعيل بك » واليه « رضوان كتخدا » وأصرَّ كلاهما على وجهة نظره ، وخرج الموكب مغلوباً على أمره .. فالتقى بموكب للسلب والنهب كان يقوده « أحمد أغا » ، وكانت الأخبار قد وصلته بأن أهل « الحسينية » يطالبون « بعزله » ..!

وتحفز الجمعان ، واشتبك الأفراد اشتباكا غير متكافىء ، وغير منظم ، جنودعلى خيول ، وأهل « الحسينية » على أقدامهم ، ورغم ذلك فقد اندفعوا نحو الفرسان وحاصروهم فى « الدرب الأصفر » ، واستهدفوا طعن خيولهم بالسكاكين والسواطير ، والمزاريق ، واختلط الحابل بالنابل ، وحاول « أحمد أغا » الهرب فقفز من على حصانه ، وهو يسقط ، واندفع إلى « قصر قلاوون » فطاردته ثلة من فتوات « الحسينية » فى أروقة القصر ودهاليزه .. حتى أمسكوا به .. فألقوه على الأرض ، وانهالوا عليه بالعصى ، والنبابيت .. ثم قصوا شاربه ، وتركوه عاجزاً عن الحركة !

ثم أسرعوا إلى « الحسينية » فتحصنوا داخلها ، وبعدها بأيام علموا أن « الوالى أحمد أغا » طلب من « حسين بك الجداوى » أن يتخلى عن الولاية ، وأن يعين « صنجقا » على « باب اللوق » ، وانتصرت « الحسينية » لابنتها التى حاول الجندى الاعتداء عليها ..!!



الحريم أيام المماليك



وحوش بلا قيود



وحــوش بــلا قيــود

ألقى الصمت بنفسه على صدر الكون ، لا رجع ، لا همسة .. لا وجود .. كأنما ألغى الكون فجأة لصالح العدم ، ! ولا قمر فى السماء ، ولا محاق ، فالظلام يغطى كل شىء ، حتى مآذن القلعة ، وكأنما الظلمة الجاثمة على القاهرة ، هى البخار المتصاعد من الظلم الذى يعيش فى كل أرجائها ، والحوارى صامتة كأن السكان قضوا نحبهم قهرا وكمدا ..!

قصر الأزبكية .. هو وحده الذى تضحك فوقه أنواره .. وتنغرس مشاعله فى قلب الليل .. تمزق عباءته السوداء بجروح ملتهبة .. « فالباشا محمد على » جاءه الليلة من قصر شبرا .. يبيت فيه استعدادا لاستعراض الجنود وأمرائهم فى الصباح ..!

إذ نادى فى المعسكرات مناد .. أن كل العسكر الخطير منهم والحقير عليه أن يكون فى استقبال « الباشا » ، وأن يجتمعوا فى أرض « ميدان الرميلة » ، وكل فرقة يتقدمها رؤساؤها ..! لأن « الباشا » سيعيد تقسيمهم إلى فرق ، وجماعات كالجيوش الحديثة .

وهو فى حاشيته ، يسمر معهم . ويستمع إلى آرائهم .. لا ليعمل بها .. ولكن لكى يعرف كيف يفكر كل منهم .. فنصف ذكائه يتركز فى أنه يعرف كيف يستدرج الناس ، ويقرأ أفكارهم .. فيعرف ما يريد منهم حتى لو أنكروه ..!

واجتمع بعض رؤساء الجند حول وليمة كبرى أقامها لهم « عابدين بك » .. وهم جميعا تحتشد صدورهم بالهواجس من هذا الحشد .. فقد كانت حجة « الباشا » غامضة ، وغير محددة المعالم فى نظرهم ، ولكنهم جميعا تباروا فى التظاهر بأن الأمر أبسط من عادى .. وجلس « حجو بك » يعبث بأصابعه فى شواربه ، و « عبد الله أغا صارى جله » يدخن النرجيلة « وحسن أغا الأرزنجلى » يقلب سيفه ، وينظر بين الحين والحين إلى زملائه ، بينهم « عابدين بك » دون أن يتكلم .. ولكن بخار الغليان فى صدورهم تسرب من ملامحهم ليملأ جو القاعة .. وتخلى « حجو بك » عن شواربه ليقول .. إنه لا يطمئن إلى دعوة « الباشا » ، ويخشى أن يكون فى الأمر خدعة ..!

ومرقت عبارته كالشهاب فى الجو ، وفتح « حسن أغا » فمه برهة .. ثم قال .. إن قلبه يحدثه أنهم سيصلون غدا فى الجنة .. فسوف يصيرهم « محمد على » شهداء .. وانحلت عقدة ألسنتهم فراحوا يثرثرون عن مخاوفهم .. ويقترح أحدهم أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أعناقهم .. هى أن يسوقوا العسكر إلى قصره فى الأزبكية .. فيحاصرونه ، ويتغدون به قبل أن يتعشى بهم ..!

وفى غمرة حماسهم للفكرة .. لا يفطنون إلى أن مضيفهم .. قد انسل من بينهم ، ومضى متنكرا إلى قصر الأزبكية فوشى بهم عند « محمد على باشا » .. الذى أسرع يطلب جند « طاهر باشا » .. فهو لا يثق إلا بهم .. وعهد إليهم بحراسة القصر ، وصعد إلى « القلعة » مع حاشيته الخاصة عن طريق غير مألوف .. والليل لم ينتصف إلا منذ ساعة ..!!

وخرج أمراء الجند لينفذوا مؤامرتهم ، وخرج معهم « عابدين بك » إمعانا فى التضليل .. وساقوا جنودهم إلى قصر الأزبكية .. وقبل أن يصلوا إلى الشوارع المؤدية إليه .. أطلق عليهم جنود « طاهر باشا » الرصاص ، وكانت مفاجأة حصدت منهم الكثير .. واشتدت المقاومة .. ثم عرفوا أن الباشا هرب إلى « القلعة » .. فاستداروا على أمل اللحاق به .. لكنهم وجدوا جموعهم فى ميدان « الرميلة » تحت أسوار « القلعة » ، ورمادية الفجر الصافية تغزو الكون .. والجنود اقتعدوا الأرض .. يتكئون على بنادقهم ، وانتحى الأمراء ناجين بجيادهم .. ثم هبطوا من فوق ظهورها ، وراحوا يتدارسون موقفهم السيىء ..!

بعد أن تشرق الشمس بساعة أو ساعتين .. يهبط « محمد على باشا » ، ويلقى القبض عليهم ، ولا تغيب شمس اليوم إلا ورقابهم على « باب زويلة » .. ولن يقف بجوارهم أحد .. بل يشمت فيهم كل الناس .. وقال أحدهم .. لابد لنا أن نشعلها .. علينا وعلى « محمد على باشا » .. ليس لنا إلا أن ننقلب إلى المدينة فنبيحها للجند .. فينهبونها وننهبها معهم .. فيثور الشعب ضد « محمد على » باعتباره الوالى الشرعى الذى عليه أن يكفل لهم الأمن .. !

بهذا نمتص حماس استنفارهم ، والرغبة القتالية التى أيقظناها فيهم .. ويكسبون ، ونكسب معهم بعض الأموال ، وينشغل عنا إلى أن نتكشف الأمور ..!!

ونادوا على الجنود .. القاهرة اليوم مباحة لكم فخذوا ما تستطيعون ..!!

واندفعوا ناحية « الصليبة » إلى « السروجية » ، وحطموا الأقفال وانقضوا على الحوانيت يجردونها من كل ما فيها .. نقودا ، وبضاعة .. وانضم إليهم من المحرومين والجياع أضعاف عددهم .. وراحوا يحطمون القدور ، ويكسرون الخزانات ، وجرت على

الأرض أنهار العسل والمسلى ، وتبرقشت أرض السوق من « باب زويلة » ، إلى « المناخلية » بالسوائل والحلويات التى كان يعدها التجار لشهر رمضان .. الذى يحل بعد خمسة أيام فقط ..!!

وفى دقائق تحولت السوق إلى ساحة قتال .. أصوات الأبواب ، وهى تتحطم ، والخزانات ، وهى تكسر ، والذين يجرون بما خطفوه يصطدمون بالقادمين ليلحقوا نصيبهم .. أو ليدافعوا عن حوانيتهم ، واختلط أصحاب الحوانيت بالذين وفدوا للسلب ، وأصبح من المستحيل عزل هذا عن ذاك .. « ومضت الهوجة » من « الأشرفية » إلى « الغورية » إلى « سوق الصاغة » والأخبار تسبقهم .. فيخطف الناس ما فى حوانيتهم ، ويغلقونها ، ومن لا يتمكن من الغلق يتركها مفتوحة .. يرقبها وهى تنهب بعينين حزينتين ، وقلب ينفطر .. ووصلوا إلى « مرجوش » فاستولوا على الحرير فى المخازن والوكالات وحملوا ما استطاعوا منه ، وتركوا الباقى ملقى على الأرض فى الشوارع .. تدوسه الأقدام الغليظة الحافية .. التى تتركه لتبحث عن الذهب .. فالكل كان يفكر فى الشىء الذى يمكنه أن يخفيه دون أن يفتضح أمره ..!!

واكتفى الفتوات بأن وقفوا على نواصى الحارات .. يجردون الضعاف مما سلبوه ، ومن لا يسلم ما معه يضرب حتى يفقد النطق .

استدعى « محمد على » شاه بندر التجار « السيد المحروقى » . طلب منه أن يعقد اجتماعا مع التجار المنكوبين ، وأن يعد كل منهم كشفا بخسائره .. لكى يعوضه « الباشا » عنها .. وخرجت وفود التجار تلهج بشكره ، وتدعو له ، واستطاع بدهائه أن يقلب الكفة فى صالحه .. ولم يتعرض لرؤساء الجند ، واكتفى بأن طلب منهم .. أن يحصلوا من الجند على ما بقى لديهم من المنهوبات .. ولم يحدثهم أو يطلب محاكمتهم عن واقعة الخيانة ..!!

وأحس « عابدين بك » أنه سقط فى ورطة مجنحة .. تأكله من الداخل كمرض خبيث .. وهو على يقين أن « محمد على » ينتظر الظروف المواتية .. ليدفع بهم فرادى .. فلا يملكون دفاعا .. وليس من المستبعد أن يشترى ود الثلاثة بعنق واحد .. هو عنق « عابدين » وما ذلك بجديد عليه ..!!

وعلى المائدة جلس يحاول أن يبدو بلا هموم .. لكن الفكر كان يغلبه .. ولم يشغله ما هو فيه عن نظرات زوجته .. كانت تغرسها فيه ، وتجمعها .. كأنها تستخرج من أعماقه شيئا .. وسألته أن يأكل .. فأجاب وهو يتمتم ، ويغتصب ابتسامة .. ولكن زوجته مازالت تنبش أعماقه بنظراتها .. حتى فقد صبره .. وقال يحاول أن يزيل من صوته التوتر والاضطراب .. إنه يأكل ويفكر فيما حدث .. فقد كان الجنود ينهبون ويسلبون بشراسة ..!

سكت .. فشل فى أن يأكل .. أحس أنه لا يجيد حتى الكذب .. كانت مأساته تمشى داخله .. الرؤساء الثلاثة لو علموا بما فعله ضدهم ؟.. يكفيه أن يعرفوا أنه كان سافلا .. نذلا ، تركهم فى بيته ، وذهب ليشى بهم .. فى هذا وحده الكفاية .. هو الانتقام ذاته .. لن يجرؤ على مواجهة أحدهم .. إما أن يفر إلى الشام أو الصعيد .. أو أن ينتحر .. وليس « محمد على » بالذى يأبه لمثل ذلك .. وقد يفعلها !!

وزحف الصراع الذى يصطرع فى كيانه على ملامحه .. فتحولت حمرة وجهه إلى زرقة كأنه يختنق ، وتحركت رموشه .. وهز رأسه بلا مبرر .. كأنه يطرد الهواجس منها .. وهاجمته زوجته من جديد بنظرة كسكين مشرشرة .. أحس بها تمزقه . إنها لابد قرأت شيئا سيئا على جبينه ..!!

فأخذ حبل المبادرة ، وانقض يسألها !.

ـــ ماذا فى الأمر ..؟ إنك لست كما كنت دائما ..!!

فصفعته بنظرة جديدة صفعا ، وهى تقول فى حزم :

ـــ ماذا فعلت بإخوتك «يا عابدين بك » ؟؟

عبارة طارت فى جو الغرفة ، وانفجرت منها شظايا .. اقتحمت عينيه ، وأذنيه فأصابته بالعمى لحظات ، وبالصمم لحظات أخرى .. وانفصل المقعد الذى يجلس عليه عن كل شىء ، وسبح به فى الكون فلا يدرى أين هو ..؟ ولا ما هى الثانية التى يعبرها ..!

كيف أدركت أنه خائن ؟ كيف عرفت أنه خرج متنكراً ؟ !.. فمن أنبأها ..؟ وهل هى وحدها التى عرفت ..؟ إنها النهاية ..!!

وحاول أن يشغل نفسه بالطعام .. يلقى فى روعها أن الأمر عادى . وأنه لا يعرف معنى لعبارتها .. وأسرع يجمع نفسه ، وهو يزدرد الطعام يفكر فى الجملة التى يجب أن يلقى بها الآن ، وقال :

ـــ عم تتكلمين « يا أبجه هانم » .. لقد كان يوما حافلا ..!! أخرجها بروده المصطنع عن صوابها .. فتراجعت عن الطعام وهى تقول :

ـــ يمكنك أن تخدع الجميع إلا أنا .. لقد خرجت متنكرا .. وعقب الوقت الذى يستغرقه ذهابك كان الباشا يغادر القصر إلى القلعة .. فبماذا تفسر ذلك ..؟!

بعد هذا الإيضاح .. حاول أن يتلفع باللا مبالاة ، ويختفى خلفها .. حاول ، لكنه فشل بعد كل هذه الأدلة .. لم يعد الإنكار يجدى .. لابد من دفاع عن الخسة التى

بدرت منه .. والتهمة الخسيسة لابد لها من دفاع أخس منها ..! وتحول فى غضب مستديرا عن الطعام .. ووقف وهو ينظر بعيدا عنها .. فقد كان يخشى الشرر الذى يتطاير من نظراتها .. وانخرط يقول .. إنه كان مجبرا على ذلك .. ولو أن أى إنسان مكانه .. ما فعل إلا ما فعله هو .. فالكل يدرك أن هؤلاء الثلاثة بالذات .. يحقدون عليه ، ويحسدونه على رضاء « الباشا » عنه ، وإنهم حاولوا منذ شهور أن يقصوه .. لكى يكون بعيدا عن « الباشا » فيخلو لهم رحاب « محمد على » .. وثلاثتهم يملكون المئات والألوف من الجنود .. الذين يمكن أن يكونوا الدروع التى تحميهم من بطش « محمد على » .. أما هو فجنده قليل .. وهو يريد أن تكون له يدٌ عند « الباشا » ..!

اعتقد أنه بذلك وضع ما يعيد إلى نفسه الهدوء ، وما يمحو احتقارها له من فؤادها .. لكنها رمته باشمئزاز ، وتحركت فى بطء ومضت إلى غرفتها .. ومضى يتبعها كأنها تجره خلفها بأغلال موهومة .. ثم توقف ليستجمع نفسه .. حاول أن يعود إلى الخلف .. لكنه تبعها ، .. فلما ولجت غرفتها استدارت تغلق الباب .. فإذا بها تفاجأ بنظراته المتوسلة .. يستصرخها ألا تغلق الباب .. فتركته مفتوحا بلا مبالاة سحقته وجعلته يتمنى لو أنها أغلقت الباب .. فيقر فى ذهنه أنها تخشاه أو تقيم لغضبته وزنا .. فتمنى لو تراجع معلنا غضبه .. إلا أن ظهرها وهى تمضى جره إلى الداخل .. رغم أنفه ..!!

سبقها بخطواته ليواجهها .. مستحضرا غضبه ، وصاح يسألها من نقل إليها ذلك ؟ يبرر لنفسه مطاردتها بأنه لم يكمل حديثه ، ملوحا بأنه لا يسترضيها .. لكنه فقط يريد أن يطمئن .. من أيضا عرف نذالته من سكان القصر .. وقالت وهى تلقى بنفسها على السرير فى يأس من حياتها معه .. إنها كانت تراقبه .. لأن سهرتهم طالت ، وكانت تخشى أن يصيب شقيقها « حجو بك » مكروه ..!!

هدأت خواطره بعض الشىء .. لأن نذالته لم يعرفها سواها .. وكان يتمنى أن يعرفها الجميع إلا هى .. لكن كيف يسترضيها ، وهى صاحبة طباع أقسى من طباع شقيقها .. إنهم هكذا « الأرنؤودية » .. وهو أيضا منهم .. ليته لم يتزوج « بأرنؤودية » .. ليته لم يتزوج على الإطلاق ! وحتى يخنق كل الخواطر عنده .. استدار فأغلق الباب بيده !!

وهم بها فاحتواها بين ذراعيه ، وأسكرته رائحة عطرها النفاذ ، ورفعت درجة حرارته البشرة الملساء .. المشبعة بالحمرة ، وطرب لصوتها وهى تتأبى عليه فى عناد ...يضاعف من رغبته الملحة .. إلا أن رفضها له .. ألهب إرادته ، وأذل كرامته .. وواتاه غضب حقيقى يجتاحه عاصفا .. فيؤرق نفسه بعض الوقت .. فينطلق من غرفتها إلى جناح المحظيات .. وكأنما اشتعلت النار فى جسده .. يستنجد بمن يعاونه على إطفائها ..!

أرسل إليه « محمد على باشا » بعد يطلبه فى الديوان .. فأرتج وركبه هم أوشك أن يرفض .. لولا أن الرسول قال له إن « الباشا » فى انتظار تشريفه .. وهى جملة لا تقال

للمطلوبين للشنق ؛ ولكن من يضمن له دهاء « الباشا » ومكره .. ونادى رئيس حرسه فأسرع للصعود إلى القلعة والتقى « بالباشا » فتبادلا التحية ، وأسر إليه أنه يريده للسفر معه إلى الإسكندرية ، وأدرك من ملامح « الباشا » أنه يخصه بالسفر معه .. فباغته زهو مفاجىء .. لكنه اعتقل الفرحة .. فقد يكون ذلك شركا ينصبه له « محمد على » ، وأغرق فى تفكير لبرهة .. خلعه « الباشا » منه وهو يقول له أن يتأهب .. فالسفر سوف يكون بعد غد مع أضواء الصباح الأولى ..!!

ودعاه « الباشا » إلى تناول الطعام معه .. فلم يستطع الرفض .. وعلى المائدة كان « كتخدا بك » ، « وإبراهيم أغا » ، وهما الحارسان الخصوصيان « للباشا » .. وهما من « الأرنؤود » أيضا ، وحدثه « الباشا » فى كثير من أمور الدولة .. وتركز الحديث فى حكاية « أحمد أغا لاظ » حاكم قنا ، وقوص وعدم اطمئنان « الباشا » إلى إخلاصه .. ثم غادر القلعة بعد الغداء مع حرسه وحاشيته !!

دلف إلى قصره ، وهبط من على جواده .. تركه للسياس .. وسعى إلى درجات القصر .. وشبت فى صدره نار الهزيمة التى صفعته بها « أنجه هانم » زوجته .. كاد يتراجع وهو يمضى إلى الداخل .. واقتحم جناحه ، وراح يخلع ملابسه ، وأقبلت جارية « حبشية » تساعده فى خلعها ، وأدركت الخادمة أن سيدها منتفخ بالغيظ يوشك على الانفجار .. فما كادت تنتهى من مهمتها حتى ذهبت إلى غرفة سيدتها .. تنقل إليها صورة للحالة السيئة التى رأت عليها سيد القصر .. ولم تجب السيدة على ثرثرة الخادمة .. بل أمرتها أن تعد لها الحمام ، وأن تكف عن الثرثرة .. وبقى « عابدين بك » فى جناحه يفكر كأنه فوجىء بنبأ فقد عزيز لديه !!

وحينما شعر بأن خطوات الخادمة لم تعد فى الجناح .. قام فمضى إلى غرفة زوجته .. كانت تتهيأ لدخول الحمام ، واندفع نحوها يهتف باسمها فى رغبة بدت فى انقضاضه عليها من الخلف .. فاستدارت .. تطالعه بوجهها الذى أبرز الغضب مواطن الفتنة فيه .. فازدادت عيناها اتساعا ، وقفزت الحمرة على خديها ، وتضاءل فمها فبرز طابع الحسن على ذقنها كل ما حشده من وجد .. ثم انداح فى أعماقه متراجعا مرا كالعلقم ، صارخا كاللهب .. ورمته بنظرة عبأتها باحتقار مقزز ، ومضت إلى الحمام ، وتركته واقفا كأنما الصدمة حولته إلى تمثال !!

أفاق بعد قليل .. فسار إلى الحمام .. كانت « الحبشية » تغادره ، واطمأن إلى أن « أنجه هانم » دخلته .. وغادرت الجناح .. فتقدم إلى الباب ، وأغلقه بالمفتاح من الخارج فى هدوء .. ثم مضى إلى مكانه ..!

أرسل أحد جنوده إلى « حجو بك » يقول له إنه يريده الآن لأمر هام ، وألا يعود إلا معه .. ثم أشار بيده لخادم القهوة « ياقوت » وهو شاب فى الخامسة والعشرين .. إفريقى

سمح الملامح .. قوى العضلات .. فلبى الفتى الإشارة .. وحينما احتواهما الجناح قال له .. إنه نظرا لما يقوم به من خدمات له .. ولكى يبرهن له على أنه أحب خدمه إلى قلبه .. أعد له مفاجأة . وهى أنه اختار له جارية بيضاء رائعة ، زوجة له .. وأن الجارية تغتسل الآن فى الحمام استعدادا للفرح ، ولكنه يريده أن يخلع ملابسه ، وأن يدخل بها فى الحمام .. هذا هو شرطه الوحيد !!

وفتح الفتى فمه وأغلقه .. ثم حاول أن يشكر أو يقول شيئا ففشل .. فهو سيده إن شاء قتله ، وإن شاء باعه ، وإن شاء فصل عنه يده أو ساقه أو أعماه بخرق عينيه أو سلمه إلى حلاق ليجتث أعضاء رجولته فيصير « مجبوبا » هذا إذا عاش .. كل ما استطاعه هو بعد أن طالت وقفته .. انحنى حتى قبل قدمى سيده .. عرفانا بالجميل .. ثم وقف بقامة منحنية .. ينتظر الإشارة بالبدء فى تنفيذ المهمة .. وأخذه أمامه فجعله يتخلى عن ملابسه أمام الحمام .. فلما لم يعد إلا ما يستر عورته .. فتح باب الحمام ، ودفعه داخله ، وأغلقه مرة أخرى بالمفتاح .. ثم وقف ينظر من ثقبه ..!

فى أول الأمر .. ظنته المرأة الجارية الحبشية .. لكن مالبثت أن تجمدت فى المغطس وخيل لها أنها فى حلم مزعج أو كابوس فظيع .. فعادت تغسل وجهها لعل الصابون خلط الرؤية عندها .. لكنها حينما تأكدت أن هذا الجسم لرجل .. ما شكت لحظة أنه آدمى .. فلا يستطيع هذا الإنسان إذ لابد أن يكون من الجن .. وطالما سمعت عن أساطير الجن فى الحمامات .. وفجر الخوف صرخة فى صدرها .. خيل لها أنها سمعتها .. فلم تدرك أن الرعب الذى حشد نفسه فجأة فى حلقها .. قد شل الحبال الصوتية .. فعجزت عن العمل .. أما « ياقوت » فما كاد يتبين أنها سيدته حتى تجمد مكانه واستدار يجذب الباب بجنون .. لكنه كان يعلم أنه أوصد .. فقد سمع المفتاح وهو يدور فيه .. وراح يدقه بيديه ، وبرأسه فى جنون .. لم يسعفه عقله بما حدث .. فقد كان الهول الذى حل به يمكن أن يفتته من الروع .. وغادرت المغطس فى لهفة كعمود من النور .. ثم تحركت وسقطت على أرض الحمام جثة بلا وعى .. وازداد هياج العبد ، وهم أن ينقذ تلك التى استلقت على أرض الحمام بلا حراك .. إلا أنه تذكر أنها عارية وأنها سيدته ، وأنه .. وأنه .. فلم يسعه إلا أن يركز كل مخاوفه فى أن يكور نفسه ، ويدق الباب بجسده .. ليسقط بعدها مفكك الأوصال على الأرض يئن صارخا .. لا يعرف ماذا حل بسيده حتى يفعل به ما فعل ..!

رأى الزوج المهزوم كل ذلك بعينيه فاكتفى بهذا القدر .. وغادر الحمام فى انتظار « حجو بك » الذى أقبل ملهوفا .. فى عينيه آثار فزع يحاول أن يخفيه .. لم يستطع أن يقرأ من ملامحه المتجهمة شيئا .. سأله عن الخبر ..؟ .. لكنه لم يجبه .. أخذه وطلب منه أن يفتح باب الحمام بيده .. كانت خلف الباب جثة العبد « ياقوت » وكان يلفظ أنفاسه .. فتحركت ساقه .. حينما أزاحه بقدمه .. فوضع حذاءه فوق عنقه حتى سمع

قرقعة عظامها .. ومضى « حجو بك » ثم توقف مبهوراً .. كانت شقيقته جثة بلا حراك ..!

وفى عشية الغروب .. خرج من الباب الخلفى للقصر حمار يحمل غرارتين .. ثم أغلق الباب الصغير .. كأن شيئا لم يحدث .. وبات « عابدين بك » ليلته فى أحضان إحدى محظياته .. ثم رافق « الباشا » فى السفر إلى الإسكندرية !!



الحريم أيام المماليك



الزمردة



الزمـــــــــــــردة

** * مات الأمن صريعا .. فوق دروب العــار . . . .!

واغتصب الرعب طهر أماني كبيرة .. بأيدى صغار . . !

ومشى يختال الفزع الأكبر . . .

يغتال اليابس فى إصرار . . .

وينتهك الأخضر . . .

اقتحم العسكر الأجلاف قصور العز .. داسوا بأقدامهم الغليظة .. أقدس أماكن الحرملك .. اندفعوا مع خيوط الشمس .. يتصايحون نشوى بالخراب الذى ينشرونه .. مزهوون باختراقهم تلك الحصون التى كانت كالجنة محرمة عليهم .. يبصقون ويتمخطون على السجاد الشيرازى .. ويخطفون التحف يدسونها فى جيوبهم .. انتصبت قاماتهم كرهط من الجن فى غبشة ردهات الحرملك .. وراحوا يمدون أيديهم إلى أعناق الحريم والجوارى ، ويمزقون ملابسهن فى مطاردة وحشية .. لكى يضعوا الأيدى الناعمة البضة فى حبال من الليف وقيود حديدية . .!

واليأس الأسود ران على الحريم .. رسم الخوف نفسه على جباه الجوارى ، وهن يحاولن الإفلات دون جدوى .. كدجاجات فاجأ حظيرتها طباخ .. يريد أن ينتهى من مهمته سريعا .. يطارد الدجاجات بيد ، ويشهر فى الأخرى سكينه .. !

وامتلأت صدور الأجلاف زهوا ، وكحيلات العيون يتضرعن ، ويتوسلن ، وهم فى موقف السيادة .. بعد أن كانوا لا يجرؤون على الوقوف فى طريق إحداهن .. ولو أن أحدهم قبل اليوم .. وصل ولو عن طريق الخطأ إلى المكان الذى يقف فيه الآن .. لدفع عنقه ثمنا لذلك فى التو واللحظة . .! !

كانت ترقب كل ذلك من مجلسها .. فى آخر القاعة ، والأسى الشاحب يملؤها .. يحشد المرارة فى فمها .. فقد عرفت منذ أمس أن « حسن باشا القبطان » مبعوث السلطان .. أمر بالقبض على كل حريم الأمراء المصريين ، ونهب بيوتهم ، وبيع

الجوارى ، والحريم ، والأولاد فى المزاد .. عقابا لهم ووفاء لما فى أعناقهم من ديون للسلطان .. فقد امتنعوا عن دفع المبلغ السنوى المفروض على « البر المصرى » واحتجوا فى ذلك بأن الفلاحين لم يدفعوا ، والأراضى لم تعطِ خيرا .. لأن « النيل » لم يفض كبقية الأعوام .. ولكن السلطان كان يعلم أن « مراد بك » ، و « إبراهيم بك » .. رفضا دفع الأموال ..ضنا بها ، ولأنهما أنفقا كثيرا فى حرب بعضهما بعضا ، وأوشكا أن يعجزا عن تجهيز المحمل الذى يسير إلى الأراضى المقدسة عقب كل« رمضان » ..!

وآخر مبعوث جاء من عند السلطان .. رده « مراد بك » مدحورا ، وأغلظ له القول ، مدعيا أن « البر المصرى » بالكاد يفى بمتطلبات أمرائه الذين يحكمونه ، ويكفى السلطان بقية بلاده الواسعة .. وما كاد المبعوث يصل إلى « إستامبول » حتى أرسل السلطان « حسن باشا القبطان » على رأس أسطول من المراكب المسلحة بالمدافع ، وبعض الفرق من جنود المغاربة القساة .. لتأديب العصاة ، وجمع ماهو متأخر لدى المماليك « المصرية » .. بكل عنف مهما بلغت درجاته . .! !

وأيقن « إبراهيم بك » حينما وصل الأسطول إلى « الإسكندرية» أن الأمر ليس هزلا ، وحاول إقناع « مراد بك » .. أن يتدبرا المال بشكل أو بآخر .. لكن « مراد » أصر على أن يخيف « الباشا » القادم ، ورتب حملة ذهب بها إلى « البحيرة » ، واستعد لدخول « الإسكندرية » .. إلا أن طلائع « حسن باشا القبطان » هزمت قواته شر هزيمة فعاد مكسور الجناح إلى « إمبابة » ، وعساكر السلطان تتعقبه . .!!

وخشى أن يعبر « النيل » ..فيتلقى تأنيب« إبراهيم بك » على تهوره .. فأرسل إليه من ينقل إليه الصورة السيئة ، ووصلت الأخبارفى نفس الوقت تقول إن « حسن باشا القبطان » قد غادر « دمياط » فى طريقه إلى « القاهرة » .. فراح « إبراهيم بك » يجمع رجاله ، ويتأهب للهرب إلى « البساتين » لكى يعبر « النيل » من هناك إلى « الجيزة » .. ثم يفر إلى الصعيد مع « مراد بك » فالأمر بالقبض عليهما انتشر فى طول البلاد .. فقد اعتبرهما السلطان من العصاة ، والكفرة الخارجين على حكم الله ، وخلافة السلطان خليفة المسلمين . .!

ولم يتمكنا من حمل بعض مافى قصورهم من متاع ، وبشر ، وجوارى ، ومحظيات ، وأولاد ، ونساء فما كان من « حسن باشا القبطان » إلا أن أصدر أوامره بعد وصوله القاهرة بيومين وعلمه أنهما هربا .. ببيع كل ما فى قصورهما للوفاء بدين السلطان .. .. وهجم الجنود المغاربة ينفذون أوامره . .!

أحست « زمردة » من مكانها .. أن الكارثة لن تبقي ولا تذر .. وأن على كل إنسان أن يحاول النجاة بنفسه ما استطاع .. هذا هو يوم القيامة قد جاء .. وذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، وكل صديق عن صاحبه .. الجميع ينتظمون فى الحبال .. كالمجرمين أو أسرى هزموا فى معركة .. وسوف يؤخذون إلى سجن « القلعة » .. ثم يباعون فى المزاد ..! لا فرق بين أم مرزوق زوجة « إبراهيم بك » وأم ولده ، وأقل جارية حبشية تقوم على خدمة الحمام ..!

ولن يعرف أحد من هى « زمـردة » ! محظية « إبراهيم بك » التى تلقاها من أسـتاذه « أبو الدهب » .. وقد يكون من مصلحتها ألا يعرف أحد ذلك .. « زمردة » التى يتسرى بها « إبراهيم بك » حينما يزهد فى كل نسائه .. فقد تلقاها صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها .. وخصها بما لم يخص به امرأة من نسائه .. ورغم أنها اقتربت من الأربعين .. إلا أنه لم يزهدها .. وظلت ذات جناح .. تستقبل فيه ضيوفها ، ويخدمنها جوارى كما تفعل أى زوجة .. لم تبلغ محظية فى تاريخ المحظيات ما بلغته .. لكنها اللحظة تموت .. فإن الحبل إذا وضع فى يديها ، وباتت فى سجن القلعة .. فسوف تموت قهرا ، واشمئزازاً ، وهربامن ذل أكيد قادم . .!

فجأة سقطت الشمس .. انطفأت الأنوار من حولها . .!

أحست أنها تسبح فى ظلمة .. إنها الآن تواجه مصيرا هرب منه « إبراهيم بك » نفسه . .! واحتقارها للجنود وللباشا ، وللسلطان .. لن يعفيها من البطش أو من البيع أو من السجن . .! عليها أن تختفى فورا من هنا .. لكن كيف . .؟

لقد سد الجنود مدخل القصر .. وبدأوا يطاردون الجاريات الحبشيات . ومن فى حكمهن .. ولا بد من أن دورها سيجيء . .!

لم يعد هناك وقت للحزن ، ولا للتأمل .. يجب أن تتصرف فورا ..!

وتراجعت إلى الباب الضيق الذى خلفها .. وصعدت الدرجات المؤدية إلى الطابق العلوى .. حيث جناحها الذى شهد أجمل أيامها مع « إبراهيم بك » . .! ألقت نظرة سريعة .. ها هى كل متعلقاته .. قفاطينه . .عماماته ..سيوفه .. مجوهراتها .. جمعتها بلا تفكيرلكى تربطها على بطنها . . .!

ارتدت قفطانا ، وجبة ، وعمامة .. خبأت شعرها تحتها .. نظرت فى المرآة .. كانت تنقصها لحية ، وشارب .. فقصت أطراف شعرها ، وغمست بعضه فى العسل ، وألصقته بوجهها وتحت أنفها .. لكن فى عينيها كانت نظراتها الأنثوية يمكن أن تكشفها .. فقررت أن تربط عصابة على عينيها تتيح لها رؤية الطريق ، تكشفها . .!

وصعدت على السطوح .. ثم تدلت بحبل إلى البيت الخالى الذى بجوارها .. ـكان « إبراهيم بك » قد طرد أصحابه .. ومضت حتى وقفت وراء بابه .. فربطت عصابة بيضاء على عينيها ، وخرجت تدب على عصاتها .. فلم يعرها أحد اهتماما .. ـدت كشيخ كفيف أو مريض العينين . .!

لم تفكر إلى أين تمضى إلا بعد أن صارت فى الشارع .. كأن كل ما كان يهمها هو ـن تهرب فقط .. فى الشارع فكرت فى أن تتجه إلى بيت « الشيخ السادات » لكى ستجير به .. لكنها ترددت فقد لاتستطيع الوصول قبل أن ينكشف أمرها .. فجأة لمع ى ذهنها الشيخ « الغرابيلى » الذى يقرأ عندهم كل يوم .. إنه الوحيد الذى يمكن أن ـد بيته مفتوحا لها .. فى مثل تلك الورطة . .!

ولكنها لاتعرف بيته على وجه التحديد .. كانت تسمع من زوجته .. عندما تجىء بها فى الأعياد .. أنهم يسكنون بالقرب من « قرافة » باب الوزير ، وهى الآن تسير فى سوق السلاح » .. خطوة .. خطوة .. والشمس ملتهبة ، والتراب فى الشارع يكاد خنقها .. وأحست بالكرب الحقيقى .. كل ما فيها مستفز ، وأعصابها متوترة .. خشى أن تتعثر أو تسقط فينكشف أمرها .. وبدأ الشعر والعسل يأكل جلدها .. لعصابة على عينيها .. وامتلأ حلقها بالغثيان .. وتمنت فقط لو أنها جلست تحت قيفة ظليلة .. لكن ذلك كان حلما بعيد المنال . .!

وشعرت أن الشارع يمتلىء بالناس .. وأطفال يتسابقون ، والمنادى على حماره يعلن سم « القبطان حسن باشا » مرسوم السلطان .. أن الجارية محظية « إبراهيم بك » ـبت ، واسمها « زمردة » ،ومن يأويها أو يحميها أو يسهل لها الهرب .. ليس له سوى ـت عقابا . .!

والتصقت بالجدار حتى تخلى الشارع لمن يتابعون المنادى ، وحتى لا يدفعوها سقط .. ولولا خوفها من الموت لسقطت من الإعياء .. لكنها تحاملت ، وظلت ـير ، وهى فى هيئتها تلك .. حتى وصلت إلى « القرافة » .. وقفت حائرة تنقر رض بعصاها .. إلى أن عبر الطريق طفل .. فقالت وهى تحاول أن تجعل صوتها ـشنا :

ـــ فين بيت الشيخ « الغرابيلى » يا جدع ياللى ماشى . .؟

وتقدم منها الطفل .. فأخذ عصاتها ، وجرها منها .. فلما صار أمام الباب نادى :

ـــ ياعم الشيخ « عثمان » .. فيه واحد شيخ عايزك . . !

ثم مضى .. ووقفت هى .. تتمنى أن تكون رحلة العذاب بالنسبة لها قد

انتهت .. وفتح الباب الشيخ « عثمان الغرابيلى » .. ودعا الشيخ الذى جاء يسأل عنه إلى الدخول .. فتقدمت تدب بعصاتها .. أغلقت الباب بعد دخولها .. مما أذهل الشيخ .. فوقف مبهوراً .. ثم شدت العصابة من على عينيها .. فصاح الشيخ :

ـــ يالطيف .. يالطيف ..

فقالت له :

ـــ أنا « زمردة » ياشيخ « غرابيلى » ..

فى لحظة ..أدرك الشيخ كل شىء . .. جاءت زوجته تسعى على صوت الشيخ المذعور .. حملقت فيها .. ولم تستطع « زمردة » أن تتمالك نفسها .. كانت فى حاجة إلى صدر تبكى عليه .. فأجهشت بالبكاء ، وتلقتها زوجة الشيخ فى حنان جارف . .! !

قالت زوجة الشيخ لها .. إنها منذ لحظة فقط .. كانت تتكلم مع الشيخ عن الكارثة .. ولم يذكرا أحدا غيرها فى قصر « إبراهيم بك » . .! فهى وحدها القريبة إلى قلبيهما .. ولعلها كانت على الباب ساعة الحديث عنها .. وقالت « زمردة » إن معنى ذلك أنها تستطيع أن تأمن على نفسها .. حتى يجدا وسيلة لها تسافر بها إلى الصعيد .. لتلحق بإبراهيم .

لكن الشيخ أجاب بأنه لا يأمن عليها شر الطريق .. وليس لها إلا أن تظل معهما حتى يرحل « حسن باشا القبطان » فهو لابد أن يرحل عاجلا أو آجلا ..ثم يعود « إبراهيم بك » ، ولكى يأمنا شر ألسنة الجيران .. عليها أن تدعى أنها قريبة لزوجته .. قدمت من الأرياف . .! !

وتتابعت الأيام .. لاحت فرصة لسفرها مع قافلة .. لكنها ترددت عرضت على الشيخ أن يسافر معها ثم يعود .. لكنه خشى أن ينفضح أمره .. ففضل أن تظل فى البيت .. فهى مغامرة أقل خطرا من السفر .. إلا أن خبر هربها ، وانتشار أخبار بيع بقية الجوارى .. أثارت العلماء والشيوخ .. وركب الشيخ « السادات » إلى « حسن باشا القبطان » ؛ ومعه علماء الأزهر فقال له .. إن بيع أمهات الولد والزوجات غير جائز ، وإنه يجب أن يكتفى ببيع ما يملكن من أموال ، وجواهر .. وبعد أخذ ورد ..وافق على أن تدفع كل جارية من جوارى « مراد بك » ، و« إبراهيم بك » مايساوى ثمنها .

ـــ أى تشترى نفسها . .!

وأن يوقف بيع مالم تكن قد بيعت منهن .. ولكن القصور صودرت وسمح « لأم مرزوق » زوجة « إبراهيم بك » بأن تعود إلى منزل لها فى الناصرية وتوافد الرسل على

ديوان « حسن باشا القبطان » يدفعون عن الجوارى الذين وكلوهم عنهم . .!

وذهب الشيخ « الغرابيلى » ليدفع عن « زمردة » .. إلا أن « الباشا » أصر على حضورها بنفسها لكى يراها .. وعاد الشيخ مدحورا .. ينقل إليها الخبر .. والحزن يسحقه سحقا .. وقفزت زوجته ..قائلة :

ــ لكنه لو رأها لأخذها .. ما قولك ياشيخ .. خذنى إليه . .! !

وما كاد « الباشا » يراها ..حتى صاح :

ــ أعوذ بالله .. هذه محظية « إبراهيم بك » ردوها بلا تعويض .. اطردوها ..وعادت فاستقبلتها « زمردة » بين ذراعيها ، وأخرجت لها نصف ما تملك من مجوهرات .. ثم لحقت « بإبراهيم بك » فى بنى سويف مع الشيخ .. الذى أهداه بقية المجوهرات ..!!





هارب من الحريم



هـــارب من الحـــريم !

*** عندما تقع الواقعة .. ترتفع الرغبة فى الحياة إلى قمتها .. فيرتشف الناس فى قلب الخطر .. كل ما يتاح من اللذة .. كدفاع أخير .. كانتقام من عدم قادم .. بالاستغراق فى الوجود الأخير ..!!

*** ليس الآن ، ولا فى هذه اللحظة .. لكن الرغبة تملؤه حتى أذنيه .. الرغبة فى الخلاص .. الرغبة فى تحرير عنقه ، وروحه من طلابها .. فهو مطلوب للموت .. مطارد من الباشا وكيل السلطان .. فزبانية الجلاد يطاردونه .. وقد اختفى منهم بمعجزة .. بعد أن فر بجواده ، فتابعوه .. من القلعة حتى .. ترك حصانه على باب « الداودية » وفر ماشيا .. فى الأزقة والحوارى .. حتى بلغ قصر « حسن بك الجداوى » فى « درب سعادة » فاقتحم باب الحريم .. وفجأة وجد نفسه .. يسبح فى الجة من نظراتها ..!

فى أول الأمر .. فزعت .. شهقت .. وقفت .. ارتدت إلى الخلف .. أسندت قوامها السحرى إلى الجدار .. تجمع ثيابها تحاول ستر بقية جسدها .. والمياه تقطر منها .. كانت تسير من الحمام إلى غرفة نومها .. ظنت أن سيدها باغتته الأحداث .. لكن الفارس وقف مرتبكا . سيفه فى يده .. حاولت أن تصرخ بعد المفاجأة .. اقترب منها وضع يده على فمها .. قال مفزوعا . إنه يستنجد بها من موت محقق ..! كان الرعب فى عينيه .. يضفى عليه جمالا .. لم تره فى الوجوه الآمنة .. ورموشه السوداء الطويلة توشك أن تصل إلى وجنتيه .. وشاربه الرفيع ، واللحية الخفيفة التى تحيط بوجهه الشديد البياض الممتزج بالحمرة .. يبرز فتنة رجولته ، وسحر شبابه الذى يوشك أن يذهب به غضب وكيل السلطان عليه ..!

ألقت عبارته فى حناياها مع ذهول المفاجأة دهشة .. عبرت عنها بجلوسها على الأريكة التى كانت بجوارها .. ثم ما لبثت أن وقعت .. ثم عادت فجلست ، وخرج صوتها مرتاعا .. تسأله .. ماذا تفعل ..؟ ماذا يمكنها أن تفعل ..؟ كأنه هو الذى يملك الحل ، وليست هى .. فكرر طلبه بأن تهيىء له مخبأ لساعات فقط .. ريثما يكف زبانية « حسن باشا القبطان » عن طلبه .. ثم يمضى ، ولها منه ما تطلبه بعد ذلك ..!

كان جناحها الذى تقيم فيه كجارية من جوارى الأمير « حسن بك الجداوى » يقع فى أول القصر على يمين الداخل من باب الحريم .. يتكون من عدة درجات تصعد بين

جدارين يحجبانه عن بقية القصر .. ثم تنتهيان بالمدخل المؤدى إليه .. حيث الصالة الكبرى .. ثم غرفة النوم .. ثم غرفة الوسط التى بها الباب الذى يربط الجناح ببقية الحريم ، ويسمى باب « الأمير » .. أما الحمام فقد كان مع ملحقاته فى الدهليز الذى يلى المدخل .. ولم تكن خادمتها الحبشـية قد عادت بالطعـام من مطبخ الحـريم الذى ذهبت إليه ..!

كان فى وسعها أن تهرب ، وأن ترفع عقيرتها .. لكنه يشهر سيفه فى يده ، وهو على استعداد لأن يغرسه فى صدرها لو أنها فعلت ذلك .. لكن الذى منعها من الاستغاثة ليس السيف وحده .. تلك الرموش السوداء التى تظلل خديه هى السبب الحقيقى .. رجولته الشامخة التى أبرزتها الأزمة .. هذا الجبين المضىء كصفحة من الفضة انعكس عليها لهيب الشفق .. والأنف المعتدل كعدالة مفقودة فى مجتمع المماليك .. كل ذلك جمد الاستغاثة ، وجعلها تفكر فى حمايته .. لا لأنها تطمع فى مكافأة .. فقد أحسّت أن المكافأة التى تسعدها .. هى أن تحميه ، وأن تنجح فى مهمتها ..!

وازداد الطرق على الباب الخارجى .. كان مفتوحا على مصراعيه .. إلا أن الجنود لم تكن لديهم الجرأة على اقتحامه ، وما كانت مكانة « الأمير » صاحب القصر تسمح لهم باقتحام حريمه مهما كان السبب .. إلا إذا كان لديهم أمر من نائب السلطان ، وأن يكون قائدهم « أميرا » من جنسه .. لكنهم استمروا يطرقون الباب .. لعل أحد الحراس يخرج إليهم .. فينبهونه إلى أن أحد المارقين قد دخل الحريم .. وأنهم فى انتظاره ..!

وتكرر الطرق .. وهو يتمعن فى ملامحها الملائكية .. وأفاق على رائحة الطيب الذى ينفذ منها ، وشعرها الذى تقطر منه المياه ، وقد انسكب حول وجهها ، والتف حول عنقها الرائع .. وجزء من صدرها يبدو مع الشعر الناعم .. كضياء من مشكاة تحيط بها ظلمة غامضة .. ولعينيها سنا يزرى بالسيف الذى فى يده .. وعربدت رغباته الشابة دفعة واحدة فى عناقها .. ولكنه كاد يصيح فى أعماقه .. ليس الآن .. ولا فى هذه اللحظات ..!! إنه فى قلب الخطر ، وعلى حافة الموت .. فكيف يعبر خياله هذا الخاطر .. أم هو الشعور بالنهاية .. يدفع النفس إلى أن تعب آخر جرعات الأمل .. حتى وهى مفلسة ليس فى رصيد أيامها وقتا لممارسة الأمنيات ؟!!

كان من الجنون .. أن يعيش كلاهما فى عين الآخر أكثر من ذلك .. والطرق يعلو دويه .. يقتحم دهاليز القصر .. يرتطم بالجدران ، ويستلقى فى الردهات .. وأحست بأقدام تقترب .. أقدام تعرف دبيبها .. وفى لحظة أفاقت .. وكأنها دبرت بشعور يملكها ولا تملكه ماذا تفعل .. انحنت نحو الأريكة .. وفتحت أسفلها بابين .. أشارت له .. فاندفع داخلها ، وأرخت هى الستر عليها .. والأقدام على وشك أن تقتحم الباب .. كانت الجارية الحبشية الخاصة بها ..

أخذتها ، وانسابت معها إلى داخل الجناح بعيداً عن الأريكة .. وانطلقت « الحبشية » تثرثر عن أسباب الضجة التى فى الخارج .. إنهم يزعمون أن الأمير « حسن كتخدا » مراد بك ورسوله إلى الحاكم قد جاء من الصعيد مع أربعة من زملائه كرهائن .. عند « حسن باشا القبطان » وكيل السلطان ، وبعد أن عرضوا شروط الصلح التى وضعها الأميران الفاران .. أنزلهم فى ضيافته حتى يقرأ الشروط فى الديوان .. لكن وصلته رسالة من السلطان .. يطلبه للسفر ، وأن ينصب مكانه « عابد باشا » .. وفى الصباح طلب الرهائن .. فذهبوا إليه .. فقال لهم إنه يرفض الشروط ، ويأمر بوضعهم جميعا فى السجن . واحتاط بهم الجنود ، والإنكشارية ، وساقوهم إلى المسجد .. لكن أحدهم ، وهو « الكتخدا » هرب بجواده ، وانحدر من « القلعة » فطاردوه حتى سبقهم فترك جواده على أول « الداودية » ثم اختفى .. وهم يقولون إنه وجد باب الحريم مفتوحا فاقتحمه .. وقد تصدى لهم الحراس ، ونفوا أن أحداً دخل الحريم ..!

من حظ الجارية « مواكب » ومن حظ الخادمة « الحبشية » .. أن كلتيهما لم تكن تنظر إلى وجه صاحبتها .. فقد كانت الأولى جالسة إلى المرآة .. تكمل زينتها ، والأخيرة كانت مشغولة فى إعداد الطعام لسيدتها :

فقد تعاقبت كل ألوان الطيف على ملامح « مواكب » ورأت ذلك فى المرآة .. مع كلمات الجارية .. وإن كانت لم تع ما قالته « الحبشية » بعد أن ذكرت اسم « حسن كتخدا » مراد بك .. فقد أحست أن ظنها لم يكذبها ، وأن حدسها كان صادقا وانبعثت داخلها الذكريات .. تجلجل فى أعماقها .. كصهيل الخيل .. حتى خيل لها أن « الحبشية » سوف تكتشف سرها لو نظرت إلى ملامحها ..!

هذا هو « حسن الصغير » الذى كان مملوكا « لحسن بك الأزبكاوى » .. فلما دارت الأيام على سيده وقتل ، ونهب قصره ، وخربت دياره .. افتتح حانوتا لبيع التنباك والصابون فى الأزبكية ، وأطلق الناس عليه اسم « حسن تنباك » .. وبذلت كل ما تستطيع لكى تتصل به وهو فى حانوته .. لكن كل جهودها فشلت .. ثم عرفت أنه باع الحانوت ، وانقطعت أخباره .. ثم علمت بعد سنوات أنه التحق بخدمة « مراد بك » وجعله من توابعه ..!

لم تكن على وجه الدقة تعرف من أين جاءت .. نشأت فى حريم أمير من المماليك كان يسكن « حوض الداودية » ثم هوجم القصر فى إحدى الغارات ، وسيقت إلى حريم « حسن بك الأزبكاوى » وكانت شابة مقبلة على السابعة عشرة ، ولكن سيدها لم يتنبه إليها إلا بعد سنين .. خلالها عرفت « حسن الصغير » .. فقد كان من الغلمان الذين يدخلون على الحريم .. ثم كبر فمنع .. وكانت تلقاه فى الدهاليز ، والأركان ، وفى الليالى القمرية فى حديقة القصر .. بعد أن ينام الجميع .. فلما تنبه سيد القصر إليها ، وقد

رآها تدخل عليه بالشراب ، وهو عند محظيته .. أمر كبيرة الجوارى أن تعدها له فى الليلة القادمة ، وأن تمنحها جناحا كبقية الجوارى اللواتى يتردد عليهن .. فقد كانت حتى يومها بلا جناح .. تبيت ، وتأتمر بأمر كبيرة الجوارى مع الباقيات ..!

وحسدتها زميلاتها ، فقد صدر الأمر بنقلها من جوارى الخدمة إلى جوارى النعمة .. وبدأت مراسيم إعدادها ، وأدخلت الحمام ، وجهزت العطور ، وأعدت الزينة واختارت من زميلاتها وصيفة لها .. فهى عروس الليلة لسيد القصر « حسن بك الأزبكاوى » لكن ذلك لم يتم .. خرج « حسن الأزبكاوى » إلى « القصر العينى » ليلتقى « بحسن بك كشكش » ، « وعثمان بك الجرماوى » بناء على طلبهما ، ولكنه لم يعد .. أعلنوه بأنه متهم بالاتصال « بعلى بك الكبير » ونفذوا فيه حكم الإعدام .. فقطعوا رأسه بحضور « إسماعيل بك أبو مدفع » ، « ومحمود بك » ، « وقاسم أغا » ثم هوجم قصره ، وبيع كل شىء فيه ، وذهبت العروس مباعة إلى قصر « حسن بك الجداوى » ..!

الحوادث تجرى فى حياة الجميع بلا قواعد ولا نظم .. الكل يحيا حياة المحارب الذى ينتظر الموت .. فيجعل همه أن يعب من الحياة .. التى يقتنصها .. فهو لا يأمن أن تجىء اللحظة القادمة .. فتجده طليقا لم يسجن .. أو حيا لم تقطع رأسه .. لذلك كانوا يعيشون فى حرص على إشباع رغباتهم بالوسيلة التى يملكونها .. مهما كانت هذه الرغبات وأيا كانت الوسيلة .. ولعل العنف نفسه كان إحدى هذه الوسائل .. عند الرجال ، وأحيانا عند المرأة إذا لم يكن من الأمر بد ..!

حينما استقر « حسن الكتخدا » داخل بطن الأريكة .. شعر أنه يدخل القبر حيا .. من الممكن أن يصبح هذا الصندوق قبره الأخير .. فالباشا لن يتركه .. وسوف يتمكنون من الوصول إليه اليوم أو غدا أو بعد الغد .. وهذه الجارية .. التى حشدت فيه رجولته رغبة واشتهاء .. سوف لا يتركها تفلت من يده .. حتى لو قبضوا عليه بعدها .. سوف يذهب إلى السجن أو يموت .. لا أحد يستطيع أن يقول له الآن إن فى غده غير هذا ..!!

والتفتت إلى « الحبشية » فقالت لها .. إنها تتوقع أن يزورها سيد القصر الآن بعد الإفطار .. لذلك ترجوها أن تعيد نظافة الحمام بالعناية المعهودة ، وأن تعد المناشف الجديدة ، وترتب كل شىء .. إلى أن تكون قد انتهت من إفطارها ..

ودارت « الحبشية » فى الجناح دورة .. ثم اتجهت إلى الحمام .. ومضت خلفها « مواكب » ، وفى خفة مدت يدها فأغلقت باب الحمام من الخارج .. واتجهت إلى الأريكة .. ففتحت الباب .. وطلبت منه أن يخرج ليتناول الإفطار ..!

مدت يدها تساعده على الخروج .. ووقف بقامته المديدة أمامها .. فسارت أمامه .. وهو لا يكاد يصدق .. مما يعانيه من مشاعر شتى متباينة .. متضاربة .. تضطرب فى

صدره .. حينما أحس بالسكينة التى تشيع فى الجناح .. والهدوء الذى يحف بها فى جلال .. ماتت توتراته التى كانت تجعله كالقوس المشدود .. وزايله الخوف الذى كان يجثم فى كل نقطة دم فى عروقه .. وكان على استعداد لأن يسلم نفسه لأعدائه يفعلون به ما يشاؤون ..!

أشارت له إلى مائدة الطعام .. وغابت في الداخل .. فأغلقت « باب الأمير » المتصل بالقصر .. وبذلك أمنت أن تفاجأ من الأمام أو من الخلف .. وعادت لتجده لم يمد يده إلى الطعام .. كان مشدوها يتلفت حوله .. يحاول أن يقرأ غموض ما يحيط به .. ألم يكن طريدا من لحظات ..؟ فكيف تقام له حفلة تكريم !

وجلست تجاهه فبدأت الطعام .. قائلة .. إنها تدرك أنه قد يخشى من أن يكون الطعام مسموما .. ولكنها لن تتخذ معه هذا الأسلوب ..! وأحس بالخجل ، وأسرع يأكل ومازالت الدهشة فى عينيه .. يبحث عن جرأته فلم يجدها .. فقالت تحثه على الأكل :

- كل كثيرا يا حسن بك .!

حملق فزعا .. وقف الطعام معلقا فى حلقه .. سألها بكل جارحة فيه إلا لسانه .. كيف عرفت اسمه ..؟ فتابعت ..

اسمك حسن بك الصغير .. الأزبكاوى .. الحديقة .. الليالى القمرية .. حانوت التباك .. مواكب .. يا حسن ..!

قفز واقفا .. خلع عدته التى كان يرتديها .. وأجلا معا تناول الطعام !!

عاد الجنود الذين طاردوا الفارس الهارب .. ليقولوا « للباشا » فى القلعة .. إن الفارس دخل حريم « حسن بك الجداوى » ، وتصدى لهم الحراس فمنعوهم من اقتحام القصر .. فأرسل « الباشا » فورا أحد الأمراء مع قلة من الجنود لحضور « حسن بك الجداوى » للمثول بين يدى « الباشا » وانزعج الأمير من الطلب . فركب على الفور معهم وصعد إلى « القلعة » وهو لا يدرى ماذا ينتظره ؟ ولا يعرف إذا كان سيعود أم سيلقى به فى السجن .. أو أنه يصلى ظهر ذلك اليوم ؟!

فلما مثل بين يدى « الباشا » .. ولمح ابتسامته اطمأن بعض الشىء .. فلما أنهى إليه الخبر .. قال إنه ليس لديه ما يمنع أن تذهب ثلّة من الجنود لتفتيش الحرملك شبرا شبرا .. فإذا وجدوه عادوا به .. فلم يكن أثقل على قلبه منه ، ومن سيده القديم « حسن الأزبكاوى » ، ومن سيده الجديد « مراد بك » .. لأنهم جميعا من توابع « على بك الكبير » العاصى الخارج على حكم السلطان خليفة المسلمين ..!

وانطلق الجنود نحو قصر « درب سعادة » !!

بعد وقت ليس بالقصير .. كان « حسن كتخدا » يعود إلى مكانه فى بطن الأريكة ، واقتربت « مواكب » من الحمام .. ففتحته ، ونادت على « الحبشية » التى جاءتها من الداخل تعلن .. أنها جعلت الحمام كله كالبللور .. طلبت منها فى سرعة أن تعود إلى مطبخ الحريم ، وأن تتقصى لها آخر أخبار الضجة .. حتى تطمئن إذا كان سيد القصر سيجىء إليها اليوم أم لا ..؟

وما كادت تخرج .. حتى أسرعت « مواكب » .. فأغلقت الباب من الداخل ، وخرج « حسن الكتخدا » فذهب الحمام ، واغتسل ، ثم أخذته إلى الداخل ، واجتازت غرفة المخدع إلى الدهليز المؤدى إلى باب الأمير الموصل للقصر .. وقالت له إن فى وسعها أن ينتظرا معرفة الأخبار من « الحبشية » ثم ينطلق من هذا الباب الذى سيؤدى به إلى ممر طويل .. ثم إلى درجات يهبطها .. فيجد نفسه فى قلب القصر ، وعلى يساره .. طريق يؤدى إلى حظيرة الخيول ، من هناك يمكنه الهرب .. إما راجلا .. أو على ظهر جواد .. إذا استطاع أن يخدع السياس أو يحتال عليهم ..!!

وأحست بطرق على الباب الخارجى للجناح .. فأسرعت نحوه ، وغلقت الأبواب دون « حسن كتخدا » ، وذهبت فإذا « الحبشية » بالباب فى هلع .. دخلت تقول .. إن « الباشا » أرسل لسيد القصر يستدعيه فى « القلعة » ، وإنه ذهب إليه .. ولابد أن كل ذلك بسبب الأمير الهارب الذى لجأ إلى هنا ..!!

وأطرقت « مواكب » متصنعة الحزن .. وقالت « للحبشية » معنى ذلك أن سيد القصر لن يجيئها اليوم .. بعد أن تهيأت ، وهيأت نفسها للقائه .. ليتها تذهب لتتقصى أكثر ، ولتعود بأخبار أدق .. فقد يجىء اليوم ويتناول الغذاء فى جناحها !!

وعادت « الحبشية » إرضاء لسيدتها .. وأغلقت هى الباب .. واندفعت إلى الداخل .. فنقلت إليه الأخبار ، وفتحت له « باب الأمير » فانطلق منه ، وتبعته ببصرها فلما غاب فى الدهليز .. أغلقت خلفه ، وكأنها تغلق نافذة فتحت فى قلبها بلا موعد ..!!

مضى وهو كله ثقة من أنه سوف ينجح فى مهمته .. إنه لو خرج من القصر فسوف يذهب إلى « البساتين » ثم يدبر طريقة ما لكى يعبر النيل .. ثم يسافر إلى الصعيد .. لكنه ما كاد يدخل حظيرة الخيول .. حتى فوجىء بثلة من الجنود يتصايحون وهم يحيطون به .. فلم يقاوم .. وأخذ على أن يركب جواداً .. وساروا به إلى « القلعة » .. فلما مثل بين يدى « الباشا » سأله عن سبب هروبه .. فقال وهو ثابت الجنان .. إنه كان يدفع دينا لأحدهم عليه .. اقترضه منه قبل أن يسافر الصعيد مع « مراد بك » .. وخشى أن يموت قبل أن يدفعه ..!!

فتفرس « الباشا » فيه وقال .. كيف فكرت فى أننا سوف نقتلك ..؟ أليس لنا رهائن عند « مراد بك » .. فقط سوف نحبسكم .. حتى نرى ماذا سيفعل العصاة برسلنا الذين عندهم ..!!

ومضى مع الحراس إلى السجن ، وهو يشعر أنه قد انتصر ..!!





الحريم أيام المماليك



الشفق الأسود



الشفق الأسود

*** * * القاهرة تذرف دمعها .. لا ندرى إن كانت تبكى معها أم تبكى لها .. حتى لغروب .. يبكى على قمم الدروب يستعطف الشفق الدؤوب .. الذى يخضب أعناق المآذن بالشحوب .. والفتاة ترمق الظلمة ، وهى تزحف على كل شىء حولها .. والعيون تحاصرها .. تجلدها .. تطلب منها الجواب .. تهمس فى فحيح الثعابين .. « نعمان بك » جاء يخطبك .. فماذا تقولين ..؟**

وأنت تعرفينه جيدا .. فقد كان من كبار مماليك « الألفى بك » .. والألفى كان من مماليك والدك « إبراهيم بك » .. والجميع على بابك ينتظرون البشرى فى جوابك .

وتدير « زينب » رأسها تقرأ المكتوب على صفحات الوجوه .. ليس بينهم من يشعر بالذى يصطرع فى أعماقها .. لو أنهم أحسوا ما هرعوا إليها .. يحملون دليل إذلال المشاعر .. يريدون منها أن تكون عروسا .. ووالدها فى أقصى الصعيد .. يحيا بعيدا عن عرينه .. بعيدا .. مقصى .. لا يملك أن يجىء إلى حريمه .. مهدر الدم .. مضيع .. نهبت دياره .. فانتقلت وحريم والدها .. إلى قصر قديم سيده تركى لئيم تولى شأنهن .. يستضيفهن شكلا ويسجنهن فعلا .. يساوم عليهن الأمراء الذين فروا إلى الصعيد ، على رأسهم « إبراهيم بك ومراد بك » إعلانا لرفضهم ولايته وخروجا على طاعته .. فهم لا يرون فيه إلا طاغية .. ولا يرون فيه إلا جنديا تركيا .. يستعين بالجنود الأرناؤوط .. أما هما فقادة « المماليك المصرية » .. الذين نشأوا فى مصر ، وكبروا وتقلبوا فى وظائفها ، ولا يعرفون لهم وطنا غيرها ..!!

استبطأ أحد الواقفين ردها .. فقال يعزز العرض المطروح عليها .. إن « أحمد بك الألفى » رفيق « نعمان بك » وزميله .. كليهما من مماليك « الألفى بك » قد تقدم « لعديلة هانم » شقيقتكم ، وعقد قرانه عليها ، وقد تقرر سفرهما ، وآخرين فى بعثة صلح إلى الوجه القبلى .. يحملون ما يعرضه « الباشا الوالى » من شروط ، وقد طلب « نعمان بك » من الوالى .. أن يكون الثمن هو زواجه من « زينب » بنت « إبراهيم بك » ووافقه « الباشا » .. ونزلت شقيقتكم « عديلة » على رأى الباشا .. فماذا عساكِ تقولين ؟ سوى أن تجيبى بنعم ، وترفعى شكواك إلى « الباشا » الوالى .. الذى يستر الأعراض ، ويزوج الحرائر بالأحرار ..و .. و ..

كان الرجل يتكلم ، وكلماته تتساقط على رأسها .. كأنه يدقها بمطرقة من حديد !! فجأة عجزت عن الصمت الذى كانت تلوذ به .. ضاعت مقاومتها التى كانت تتمسك بها .. فصاحت صارخة .. كفى .. كفى ..!

تفجر الذعر يجتاح الذين يحيطون بها .. ماذا يقولون لهذا المملوك المطرود الذى وعده « محمد على باشا » .. لو أختها لم توافق .. لو أن قرانها لم يعقد .. لكن الأولى وافقت .. قد تكون أدركت الحقيقة .. استطاعت أن تعرف بذكائها .. أن المقاومة لا تجدى .. أن الرجال ، وحملة السيوف أحنوا هاماتهم .. وقبلوا ما يفرضه عليهم « محمد على باشا » ، والذين لم يقبلوا فروا إلى الصعيد .. وهى فتاة فماذا تفعل لو أنها رفضت ..؟!

وتقدم المخصى « لاظوغلى أغا » كبير بعثة الوكالة التى جاءت تسألها الرد ... تجاوز الخمسين ... مثقل بالتجارب ... فيه دهاء الساسة وذكاء التجار .. وعلى ملامحه حنان استحضره .. يبغى به كسب الموقف قال وهو يبذل عطفه من جوانحه .. ويغطى نبرته العنيفة بابتسامة صفراء كزبدة على خبز جاف وهو يقول لها :

« زينب » ابنتى أنا أسير فضلكم وربيب نعمة والدكم العظيم .. لكن الليالى القاسية .. لا يغلبها إلا من يرضى بها .. والعاصفة تقتلع من يقف فى وجهها .. أما من يحنى رأسه لها فإنها تمر دون أن تصيبه بأذى ولو أنى أعرف عيبا فى « نعمان بك » ما قبلت أن أكون رسوله إليك ..!

وأصابها حديثه فى أنحائها .. دس السم فى عروقها ملأ قلبها وضاعف إحساسها بالقهر بالانسحاق بالتلاشى لا تعترض على الأشخاص .. لا ترفض « نعمان » أو فلاناً إنها ترفض أن تتزوج بهذه الطريقة .. أن تكون أجرا أو هدية أو مكافأة يمكن أن يمنحها « محمد على » لمن يريد فهى ليست جارية وليست خلعة يخلعها الباشا على من يريد وهى أيضا حرة ابنة « إبراهيم بك » وليها ولن تتزوج إلا بموافقته ولن تعترف بولاية أحد عليها غيره .. فالباشا والٍ على من قبلوا ولايته .. أما والدها فلم يقبل وإلا لما سافر إلى الصعيد وهى على مذهب والدها .. حتى لو ظلت فى القاهرة ..!! وحملقت فى الخصى ، وحملق فيها ثم قالت فى أنفة .. لن أرفض ولن أقبل .. وليس لى من الأمر شىء .. إن كان « نعمان بك » موفداً فى سفارة صلح إلى أبى من قبل الباشا فليحصل على موافقته .. فهو وحده الذى يملك أمرى .. ولا ترضينى ولاية غيره .. والحرة لا تعصى والدها ..!

ألقت كلماتها أحجارا فى لجة الصمت .. إنه فى دوائر .. لا أحد استطاع أن

يعلق ، كلماتها حادة كالسيف .. تحدتهم أن يلوموها أو يردوا على جوابها ورفع الخصى وجهه وأطال النظر إليها وكان فى الوفد أحد المشايخ اهتز قائلا .. القول ما قالت « زينب » .

انسحب الوفد .. تسللوا كأنهم ضبطوا متلبسين بذنب .. بعضهم أحس أنه يسىء إلى رب نعمته السابق يتزلف بالإساءة لابنته إلى الوالى الجديد .. والذين جاءوا إليه يحملون الولاء بعد أن قضى « الألفى بك » نحبه .. مقهورا من تخلى أمراء الصعيد عنه فلما ورثه فى مماليكه « شاهين بك » كبير مماليكه انحاز إلى « محمد على باشا » وخدعه معسول الكلام وتحقيق بعض الأمانى من استقرار فى المحروسة والتلويح بالمناصب والإقطاعيات .. إذا ما نجح مماليكه فى سفارة صلح مع « مراد بك وإبراهيم بك » .. فيعودا برجالهما إلى القاهرة .. ولم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ بالذى يدبره الباشا الخبيث للمماليك المصريين .. الذين ينعون عليه أنه تركى من الأرناؤوط وأنهم أحق منه وأن أعيان البلاد الذين بايعوه كانوا على جانب من الغفلة .. إلى جانب يأسهم من معارك المماليك المستمرة ضد بعضهم .

تجمع أعضاء الوفد خارج القصر الذى تنزل به « زينب » تشاوروا فى الأمر .. أيهم يحمل الرد إلى المملوك « نعمان بك » وحمل الخصى على الشيخ عضو الوفد .. وقال له إنه هو الذى .. أطلق لسانه يستصوب ما فعلته « زينب » فليتقدم ويقنع المملوك بأن القول ما قالته « زينب » وطار قلب الشيخ شعاعا من الهلع .. وانحنى يقبل يد الخصى .. لكنه أصر على أن يدفع به .. فإما أن يقتله « نعمان بك » وإما أن يجلده وإما أن يلقى به فى السجن .. !!

وعادت « زينب » إلى حزنها .. غاصت إلى العمق فى همها .. أهانت على الناس إلى هذا الحد .؟ وهل هانت أيضا على نفسها ..؟ وهل يمكن لكواكب السماء .. أن تداس بالأقدام إذا سقطت على الأرض ..؟ ولابد أن « عديلة » شقيقتها عقدوا قرانها عنوة أو لعلها أعجبت « بأحمد بك الألفى » وحتى لو كان ذلك حقيقة .. كان فى وسعها أن ترفض حتى تحصل على موافقة والدها .. ولكن .. هى فعلت عين الصواب .. فهى لا تفعل إلا الصواب .. وإذا عادوا يسألونها تكون كشقيقتها .. لديها ما تقوله ففى الكف الواحدة خمسة أصابع ، وليس بها إصبع يشبه الآخر !

وجاءتها الجارية الحبشية .. اقتحمت عليها مخدعها .. كانت مذعورة .. مذهولة .. قالت لها .. سيدتى أواثقة أنه لا أحد يسمعنا ..؟ أجازف الآن بحياتى .. وهى رخيصة فى سبيلك .. بالأمس ، وفى قلب مصر « نعمان بك » سمعته يهدر كالجمل .. أقسم أن يحطم كبرياءك ، وأن ينزل مقامك .. بأن يتقدم إلى « الوالى » .. يستأذنه فى أن يستبيحك مع ما بقى من أموال أبيك .. غنيمة له . مكافأة على إخلاصه ، وانتمائه

الأخير .. و « الوالى » لن يرفض له طلبا .. وأنا يحزننى أن يكون هذا مصيرك .. فلو أمرتينى أقتل نفسى فداء لك ..!

لابد من الوصول إلى مخرج .. طال الصمت .. والحيرة تفترس « زينب » .. ودموع الجارية تنحدر ، ودموع « زينب » .. تمسك بها بقية من كبرياء .. لكن قد أسقط فى يدها ..!

امتلأت بحب الجارية .. إخلاصها بدد بعض حزنها .. اتجهت بأفكارها إلى المخلصين .. لمع فى ذهنها « خليل أفندى » أحد كتاب والدها .. والرجل يسكن « الداودية » .. لكن ماذا يمكنه أن يفعل ..؟ هذا إذا قبل أن يفعل .. فقد يمنعه الخوف .. أو يمسك به الحرص على عنقه .. لكن من المؤكد أن الوفاء الذى لديه .. أكبر من خوفه أو حرصه ..!! وقالت للجارية .. أن تذهب إلى « خليل أفندى » .. تبلغه بالورطة التى هى فيها ، وتطلب منه أن يكون على استعداد لاستقبالها بعد الغروب ، وقبل العشاء . على أن تعود الجارية من عنده بعد صلاة العصر .. حتى يمكنها أن تدبر أمرها ..!!

وحينما أدخلوا الجارية على « خليل أفندى » .. قالت له إنها قادمة لأمر هام يتعلق « بزينب هانم » ابنة « إبراهيم بك » .. توقفت المسبحة فى يده ، وقفزت على ملامحه دهشة مفزعة .. ومسح ما حوله بعينيه .. حتى اطمأن إلى أن غلامه خارج الباب لا يسمع .. ومنحها هدية ، وقدرا من المال . يعبر به عن شكره لها على إخلاصها الرائع لسيدتها !

وعادت الجارية فتسللت إلى القصر .. التقت « بزينب » التى أحست من عينى الجارية .. أن « خليل أفندى » لم يشأ أن يكون أقل وفاء من الجارية .. وطلبت منها « زينب » أن تساعدها فى ارتداء ملابس مملوك .. أخرجتها من صندوقها .. وحينما صارت شابا أمردا رائع الجمال .. لطمت الجارية .. وقالت لها .. إنها تفلت من أيدى الرجال ، لكى تسقط فى أيدى النساء .. وابتسمت « زينب » لتعليق الجارية .. رغم الهموم التى تكتنفها ..! وما كادت غبشة المساء تستحكم .. حتى تسلل شبحان من القصر فى غفلة من الحراس .. وسارا نحو « الداودية » ..!

لم تكن قد مضت ساعات .. فقبل أن ينتصف الليل .. هاجم « نعمان بك » مع ثلة من جنوده قصر الضيافة .. لكن « زينب » كانت قد اختفت .. وجن جنونه ، وعاد إلى قصره يعوى ويصرخ كالكلب المسعور ونادى أنه يدفع مائة كيس أو خمسمائة أو ألفاً لمن يدله على مكانها ..!

وحينما كانت الجارية الحبشية « ألماظ » .. عائدة .. من بيت « خليل أفندى » ليلا .. داهمها جنود سيدها ، وفتشوها .. بناء على تعليمات صدرت بتفتيش الذين يخرجون أو يدخلون .. وضبطت معها الهدية ، والأموال .. وسيقت إلى « نعمان بك » ليقول كلمته فيها .. عرف بعد تحقيق سريع أنها كانت جارية فى قصر « إبراهيم بك الكبير » ، وعليه فلابد أن تكون هذه الأموال والهدية ثمنا لاشتراكها فى إخفائها ..!

واستمر تعذيب الجارية .. ثلاثة أيام ليل نهار .. لكنها رفضت أن تتكلم حتى أمر بضرب عنقها . فأعدمت دون أن تتكلم ..!!

بعد أعوام عرفت « زينب » القصة .. وكانت قد أصبحت زوجة لأحد السناجق فى الصعيد بعد أن لحقت بوالدها هناك وكان أن بنت مسجدا أطلقت عليه اسم « مسجد ألماظ » .. تخليدا لوفاء هذه الإنسانة الجارية التى تفوقت فى إنسانيتها على الأحرار .. ومازالت بقايا المسجد قائمة فى إحدى قرى محافظة « المنيا » .. لكن القصة لم يعد يعرفها سوى من يقرأ « الجبرتى » !!





الحريم أيام المماليك



ليالى الشوق



ليـــالى الشـــوق

*** باتت « الجمالية » تنتحب .. يمشى الأسى فى حاراتها ، ويفرض الحزن نفسه على شوارعها .. يفرش مع الظلام كل مساحاتها .. والناس كالأشباح .. يهيمون فى العتمة .. يصطدمون .. يتهامسون .. يتناقلون أخبار القادمين .. فقد خرجت حامية الفرنسيس مع قوادها .. الذين اتجهوا إلى « الصالحية » .

ولم يعد فى القاهرة .. سوى بعض المراكز الضعيفة .. فقد أمنوا الاضطرابات ، وظنوا وهما أن المصريين قد استسلموا ..!

ففى ذلك الجزء الأخير من النهار .. أقبل « إبراهيم بك » فى مظاهرة ، ودخل من باب النصر مخترقا « الجمالية » .. ثم تلاه « سليمان أغا » ، « وعثمان كتخدا » الدولة ، وقبل غروب الشمس أقبل « نصوح باشا » فى موكب مهيب .. بصحبة السيد « عمر » نقيب الأشراف ، والسيد « المحروقى » كبير تجار المحروسة ، « وحسن بك الجداوى » ومن رؤساء المماليك .. « الأشقر » « والمراوى » ، « والشرقاوى » ، « وعثمان الخازندار » ، واتجه بعضهم إلى قصوره ، والذين ضربت ديارهم بأيدى الفرنسيس .. آواهم السيد « المحروقى » ، ونودى فى الشوارع حى على الجهاد ، ومواجهة الفرنسيس ، والانقضاض على مراكزهم الضعيفة فى القاهرة ، وتجهيز فرقة لمطاردتهم فى « الصالحية » ..!

واهتزت الأفئدة من جديد .. وتحفزت الدماء فى العروق للأخذ بالثأر ، وبدت فى كل ركن نذر الحرب ، وارتفعت الأسعار ليلا .. لم ينتظر التجار حتى الصباح .. وكانت رؤوس الناس .. صورة من « القاهرة » .. آلاف الأفكار التى تناطح بعضها .. الذى يتهيأ للقتال محتسبا وجه الله ، والذى يتأهب لسرقة الشعب لكى يثرى . والذى يجمع الأقوات ليحتكرها ، والذى ينفق ليجهز المقاتلين كالسيد « المحروقى » .. وكل رأس يشغله ألف هم ، وهم ..!

وجاء شفق ذلك النهار كأنه يبشر بغده .. صبغ اللون الأحمر قطعان السحب .. وامتزجت ظلمة الغروب بحمرة الشفق .. فأصبحت داكنة كأكباد تحترق .. وانطلقت من « درب المسمط » شابة تجاوزت العشرين .. ترتسم اللهفة فى عينيها ، وترتعش على ملامحها الرجفة .. لكنها لم تذهب بالسحر الكامن فى العينين .. بل اختفى الفزع من الحدقتين .. العينان فى لون البن .. ضعفا وشجنا ضاعف من الإغراء .. وأضاء جبينها

تحت الشعر الأسود المهذب .. الذى تهبط خصلته ثم تعود .. كطير من الأبنوس .. يشرب من جدول بلور .. فارهة الطول .. ناهدة الصدر .. لها عنق غزالة من المرمر .. وفم تندم الكلمة حينما تغادره ..!

سارت إلى « بيت القاضى » تتطلع إلى وجوه العائدين .. تتفرس .. تسأل بعضهم .. لكن الإجابات كانت آمالاً أحيانا بلغة اليأس ، وأخرى يأساً مطحوناً تحت أقدام الرجاء .. الجند وعمال الخدمة ، وكل الذين خرجوا مع المماليك ، وفضلوا الفرار على الوقوع فى أيدى الفرنسيس .. قد عادوا معهم .. فهل يمكن أن يكون هو قد عاد ..؟ الشوق يؤكد أنه عاد ، ولكن زملاءه من رجال « إبراهيم بك » .. لا يجيبون بصراحة .. بعضهم يحاول أن يهرب منها ، وبعضهم كان شجاعا فقال لها إنه لم يره إلا يوم خروجهم من مصر ، وبعضهم قال .. إن « العربان » كانوا قد أغاروا عليهم ، وبعدها لم يره .. وبعضهم قال لها سوف يصل .. وبعضهم قال – وأقسم على قوله – إنه وصل معهم .. ولم يفترق عنه إلا عند « باب النصر » ..

لم تكن وحدها التى خرجت .. تبحث عن « متولى » .. عشرات خرجن .. لكن كل واحدة تبحث عن رجلها .. المصريات اللاتى لا يخرجن خرجن .. طوح بهن القلق المضنى .. خارج البيوت والدور .. فالرجال الذين عادوا .. ملأت بيوتهم الزغاريد .. وملأ نساؤهن القلل ، ووضعنها فى المشربيات وكان ذلك دلالة على أن رب البيت قد وصل ، وانتشرت فى الحارات رائحة الأطعمة الدسمة .. تطبخ للعائدين المحرومين وفاض الانتظار والصبر بالأخريات .. فخرجن يبحثن .. تقول أقدامهن المتعثرة فى الحيرة والاستحياء : أين رجالنا ..؟

أوشكت « زاهية » أن تصل إلى « باب الفتوح » ، ولا أحد تلقت منه الخبر الذى تريده .. الخبر لا يقطع الشك باليقين .. بل ترسب من أقوال الرجال عن الغائب .. ما جعل الغصة تتصاعد .. والرغبة فى البكاء تخنقها .. فقد كان عليها أن تتوقع أنه قد أصيب بمكروه .. لو كان حيا لعاد مع العائدين .. ولو كان مريضا لعادوا به محمولا .. فقد عاد بعضهم محمولا على الدواب .. وإذن فلن يعود « متولى » ورفضت الخاطر السيء .. طردته من رأسها .. لكنه وقف يلح .. فلم يعد غيره ..!! الشوارع مكدسة بالناس ، وخيول تحمل العائدين ، وباعة يصيحون ، وحملة بيارق ، وطبول .. يطوفون الشوارع .. لكنها لم تشعر بكل ذلك .. كأنها تسير وحدها فى صحراء ، فقد استغرقتها الكارثة ..!

عادت والحسرة تحيط بها .. تحتويها فى كف الحيرة .. كرست الصدمة فى أعماقها .. ضياع الأمل فى العثور على « متولى » ..؟ ودلفت إلى بيت أمها فى « درب المسمط » ، رأحست العجوز من خطوات ابنتها .. أن اليأس يتعلق بقدميها .. فلم تشأ أن

تسألها .. لكن « زاهية » .. عانقت أمها ، وهى تبكى .. معلنة أن الأمل ضاع فى عودة « متولى » ..؟

وعاد « محروس » شقيقها ، وكان هو الآخر يحاول الوصول من العائدين إلى الحقيقة .. وأعلنت ملامحه عن يأسه .. الذى رفض أن يتكلم عنه .. ولم يتكلم « محروس » .. ألقى نظرة على شقيقته ، وعلى أمه ، واستغرق فى الصمت ..! وكان ذلك كافيا لأن يصب الكارثة فى يقين « زاهية » ..!

بعد يومين أقبل رجل من « الخرنفش » .. عاد حديثا مع العائدين .. يرتدى ملابس تنم عن الثراء وحينما وقف يسأل عن بيت « متولى » .. تجمع أهل الحارة حوله .. واندفع الرجال يسألونه عن حقيقة « متولى » .. واقتحموا معه الدار رغم عدم استئذانهم من صاحبته .. كأنهم يمارسون حقا من حقوقهم .. وقال الرجل إنه كان صديقاً ورفيقا « لمتولى » الذى وافاه أجله إثر مرض قصير ، وقد حمله « خاتما » كان فى يده لزوجته لتتأكد من صحة لقائهما ..!

وأطلقت أمها صوتها من عقالها وامتلأ البيت بالنساء ، وأخذ أحدهم الضيف إلى بيته فأكرمه ، وقبل أن يجمع الضيف أطراف ثيابه ليمضى .. طلب أن يرى « زاهية » زوجة « متولى » لأن لديه ما يعطيه لها بعد « الخاتم » .. وحينما جاءت حرص على أن يسمع الجميع حواره .. فقد أخرج كيسا من الدنانير دفع به إليها .. وهو يقول لها إن حانوته فى « الخرنفش » ، وإنه تحت أمرها ، وفاء لذكرى صديقه « متولى » ..! ومضى دون أن ينتظر شكرها .. لكن أهل الحارة قاموا بالشكر عنها .. وقال « زين » البقال .. إنه يقطع ذراعه .. إذا لم يكن هذا الرجل يضع عينه على « زاهية » ..!

وبعد ثلاثة أيام .. شعرت المراكز الفرنسية التى فى « القاهرة » .. بحركة التعبئة التى يقوم بها العثمانلية ، والمماليك والمصريون .. فهاجموا الأحياء التى تحصنوا فيها .. وردتهم الفئات المرابطة ، واضطربت المدينة ، وشاعت الفوضى فى الشوارع ، وسرت موجة السلب والنهب ، وتحطيم المخازن والحوانيت ، واقتحام البيوت ، وألقى الناس التهم على بعضهم .. فذاك يتصل بالفرنسيس ، وهذا يكاتبهم ، وذلك يحتفظ فى بيته ببعض الجنود .. واختلت الموازين ، والمقاييس ، ولم يسلم من التهم إلا القليل .. وحدث أن أشاع أحد الحاقدين الموتورين عن الشيخ « خليل البكرى » .. أنه يكاتب الفرنسيس ، ويرسل إليهم الأطعمة .. وهجم العامة على بيته .. وفوجىء الشيخ .. ووقف يخطب فيهم .. فأسقطوه ، وخلعوا عمامته ، وقيدوه ، وأخرجوا خلفه حريمه ، وأولاده ، وجروهم إلى « الجمالية » .. حافيا مكشوف الرأس .. يتلقى اللعنات من جانبى الطريق .. وجىء به إلى « عثمان كتخدا » .. وكان فى « الجمالية » هو و « نصوح باشا » نهاية مطاف المظاهرات .. ومعقل آمالهم فى الخلاص من الفرنسيس ..! وهبط « عثمان

كتخدا » فأنقذ « الشيخ البكرى » ، وأكرمه مع نسائه وأهله ، واعتذر له .. فكل من يقبض على جاسوس أو يقتل فرنسيا أو يحصل على معلومات يتقدم بها إلى قيادة المعاونة التى شكلت من الاثنين ، « وإبراهيم بك » لكن الثالث كان مع رجاله لا يخشى كثيرا .. حيث عسكر فى « دير الطين » عند مصر القديمة ..!

وفوجئت القيادة برجل مغربى يتكلم اللهجة المصرية يقود جماعة من الإنكشارية ، والمغاربة والمصريين المرابطين فى « خان الخليلى » ، وهو يسيطر على الخط كله .. حتى « الخرنفش » حيث يأتمر الجميع بأوامره ، ويسلحهم بالنبابيت ، والبارود .. الذى يستولون عليه من الفرنسيس .. وكانّ هو الذى حرض على « الشيخ البكرى » .. فلما جيء به اعتذر عن الفوضى التى وقعت من رجاله ، وأعيد إلى مكانه .. لأن الجميع كانوا فى حاجة إلى كل الجهود .. وبلغ من نشاط الرجل المغربى أن « نصوح باشا » و « عثمان كتخدا » أرغما على مد رجاله بالعدد والآلات التى طلبها ..، وأناطوا به حماية بعض الخطوط ، وأنشآ له ديوانا « بالخرنفش » ينافس ديوان أى باشا من الباشوات ..!

وأحست « زاهية » ، أنها فى حاجة إلى أن تسأل الرجل الذى نقل إليها الخبر .. وحمل إليها « خاتم » « متولى » .. كان لابد أن تعرف ماهو المرض الذى أصابه ، وكم يوما بقى مريضا ..؟ وهل دفن هناك .. ؟ وهل يعرف قبره أم لا .. ؟ .. واصطحبت شقيقها « محروس » ، وخرجت تسعى إلى « الخرنفش » ، وهناك فوجىء « محروس » .. بأنه صاحب هيلمان ، وأنه هو نفسه المغربى الذي يتحدث عنه الناس .. وأدخلوهما إلى ديوانه وقال لهما .. إنه دفنه بيده ، وإنه مات متأثرا بالحمى ، وفى جرأة وقحة .. خطب « زاهية » من « محروس » .. مما أفزعها ، وحرك دموعها فى عينيها ..!

أسقط فى يد « محروس » ، واستولت الحيرة على « زاهية » ، ونظر كلاهما إلى ماحولهما .. فإذا هما بين يدى أحمق طاغية .. يحيط به جماعة من المريدين الذين فقدوا عقولهم أو أفقدهم إياها .. فهم يؤمنون أنه من الواصلين .. الذين ملكوا أسرار الدنيا والآخرة .. وأنه إذا أشار بشيء فذلك أمر واجب التنفيذ .. وحاول « محروس » أن يعتذر أو يطلب مهلة للتفكير .. فقد توارت « زاهية » خلفه ، وراحت تهمس إليه ألا يوافق .. إلا أن « المغربى » التفت إليها .. ثم همهم طويلا .. ثم قال لها .. أنت موعودة .. مكتوبة على اسمى وأنت فى بطن أمك .. وليس لك الخيار .. ما قولك ..؟!

وانطلقت أصوات المريدين المحيطة به كخلية نحل .. يصيحون ، ولم يستمع أحد إلى همهماتها .. وأرادت أن تعلن رفضها عمليا ، فوقفت غاضبة تريد الخروج ، وهب معها شقيقها . لكن الرجل أشار لمريديه .. فخطفوها .. فى لحظة اختفت ووجد « محروس » نفسه وحده .. فحاول الهجوم .. لكنه لم يعرف ماذا حدث .. تلاشى الوجود من

حوله .. وتلاشى هو من الوجود .. ثم أفاق فى بيته عند أمه .. التى قالت له .. إن جماعة جاءوا به محمولا ، وقالوا لها إن الفرنسيس ضربوه ، وأعطوها مائة دينار .. قالوا إنهم وجدوها معه ..! ولما سألتهم عن « زاهية » قالوا لها إنهم لا يعرفون شيئا .. فأيقنت الأم أن الفرنسيس خطفوها .. لكن « محروساً » روى لها الحقيقة ، وهو يشعر بالخجل .. وفوجىء بوالدته تقول إن الله عوضها خيرا ، وإن « متولى » لو عاش ألف سنة . لما أصبح فى ثروة هذا الرجل ومكانته ..! وخرجت إلى « الخرنفش » لتطمئن على « زاهية » فى بيتها الجديد ..! واستقبلها رجال « المغربى » ، وقدموها إليه .. فرحب بها ، وقبلت يده فأعطاها كيسا من الدنانير ، وطلب أن يدخلوها عند ابنتها فى الحريم .. وامتلأت المرأة فخرا ، وعجبت من أمر ابنها « محروس » الذى يبدو أنه غير راض .. عن النعمة التى أصابت شقيقته .. فهو يتكلم فى حق « الرجل الباشا » كلاما سيئا .. هذا رجل ملك الدنيا والدين .. لقد انفتحت ليلة القدر أمام « زاهية » ..!

ورأت الرفاهية ، والعز الذى تنعم فيهما « زاهية » ، ودخلت على ابنتها ، وهى بين جاريات يدلكنها ، يزينها ، ويقمن بخدمتها ، وهى تسبح فى العطور والبخور ، وكأنها أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة .. وألقت « زاهية » بنفسها على صدر أمها ، وانهملت دموعها .. وهدأت الأم من روعها .. وجرى حديث طويل بين الأم وابنتها ..!!

لم ينته الأسبوع وفى الليلة الأخيرة منه ، وصل إلى باب النصر جندى سلطانى .. دفعوا به إلى « نصوح باشا » .. حيث أخبره بأن « حسن بك ، وسليم بك أبو دياب » حاصرا أحد قواد الفرنسيس فى « القرنة » مع رجاله ، وأرغموهم على التسليم .. لكن نجدة وصلت إليهم ، وشتتوا قوات المصريين ، والعثمانيين ، وأن « مراد بك » خشى أن يشتبك مع الفرنسيس .. لما رآه من كثرة عددهم ، وعونهم .. فأخذ رجاله ، وأصبح عائدا ، ولم يدخل « القاهرة » .. بل سار من خلف الجبل إلى « دير الطين » ليلتحق « بإبراهيم بك » هناك ، وأن الفرنسيس قادمون من الشرق ، فى فرق جرارة لتأكيد وجودهم ، ودعم مركزهم .. وأرسل « الباشا » على الفور يستدعى « عثمان بك كتخدا » ، وناقشا الموقف ، وقررا أن تواجه « المحروسة » الفرنسيس بقلب رجل واحد .. فيدافع « عثمان » بك الأشقر عن « باب اللوق والمدابغ » ، وأن يعسكر « عثمان بك أبو طبل » فى المحجر « ومحمد بك المبدول » عند « الشيخ ريحان » و « كاشف أيوب » وجمـــاعته عند « النـاصرية » . ويكمن « مصطفىٰ الكبير بك » عند قناطر « السباع » ، و « سليمان المحمودى بك » فى سوق السلاح ، وأبناء القرافة ، والحسينية ، والعطوف عند باب النصر ، وأن تعمل مصانع البارود فى « الخرنفش » بكل قوتها ، ويجرى إصلاح المدافع القديمة للانتفاع بها ..!

ونودى على الجهاد من جديد ، وحرم النوم إلا على المريض ، والعاجز ..! واندفع أهل « بولاق » بقيادة الحاج « مصطفى الباشتيلى » فى جنون .. فحملوا النبابيت ،

والعصى ، والفؤوس ، وهجموا على خيام الفرنسيس المرابطة على النيل .. فقتلوا بعضهم ، وفر البعض الآخر ، ونهبوا ما كان فى الخيام .. ثم حطموا المخازن ، واستولوا على الغلال ، وعلف المواشى ، وأشعلوا النار فيما فشلوا فى نقله ..!

أفلح المصريون فى تصفية الجيوب الفرنسية التى كانت فى « المحروسة » .. واستخفهم النصر فراحوا يتظاهرون هنا وهناك ، ولكن الكبار وضعوا أيديهم على قلوبهم .. فالقادمون من الشرق يواصلون الزحف ، والعامة لايدركون ذلك .. وهم رغم قدومهم من سفر .. إلا أن ما يملكون من مدافع حديثة ، وأسلحة ، وجنود مدربين وقادة خاضعين للأوامر فى وسعهم أن يقتحموا المدينة فى ساعات ، وأن يقيموا المشانق ، والمحاكمات لكل من أسهم فى الثورة التى حدثت ضدهم ..!

وصلت طلائع الفرنسيس ، وتسلموا القاهرة حيا بعد حى .. القنابل ترمى بها البيوت دون تمييز ، والناس يأوون إلى الحواصل ، والطوابق الأرضية والشوارع خلت من الناس ، والحرائق تشتعل فى كل مكان ، وفى كل حارة .. نسوة يلطمن الخدود على عزيز .. زوج أو شقيق أو أب ..؟

عشرة أيام متوالية .. سقطت بعدها كل الأحياء ، وقبض الفرنسيس على الحاج « مصطفى الباشتيلى » ، وفرضوا على أهل بولاق عشرة آلاف ريال غرامة خصصوا لجمعها تسعة أشخاص ، وأخرجوا الزعيم « الباشتيلى » عاريا حافيا مكشوف الرأس ، وقالوا لأهل « بولاق » .. إنه السبب فى كل ما حدث لهم ، وإن القائد الفرنسى قدمه لهم لينتقموا منه بأيديهم .. ولم يصدق البطل أن الذين كانوا يهتفون باسمه بالأمس هم الذين يقتلونه اليوم .. وانهالت عليه العصى من حثالة القوم ، فأغمض عينيه ، واستقبل الموت .. حزينا على ما أصاب الناس فى رجولتهم .. !

وأصر الفرنسيس على خروج « العسكر العثمانلية » من « المحروسة » .. وإلا أنهم لن يرفعوا أيديهم ، ولن يقبلوا هدنة .. وكان وفد المفاوضات مكونا من « عثمان البرديس » ، و « كاشف رستم » وكلاهما من رجال « مراد بك » ، وحاولا إقناع « الباشا » والعساكر العثمانلية بالخروج من المحروسة حقنا للدماء ، ورحمة بأرزاق الناس التى توقفت .. فقد صمم الفرنسيس على حرق « المحروسة » إذا أصر العثمانلية على البقاء ..!

وأرسل كبير الفرنسيس يطلب « الشيخ الشرقاوى » ، و « الشيخ المهدى » ، والشيخ « سليمان الفيومى » والشيخ « موسى السرسى » ، فلما التقى بهم قال لهم ، إنه على استعداد لوقف القتال على شرط أن يدخل فى طاعته كل المماليك ، والأمراء ، وأن يرحل من يريد الرحيل ، ومن يبقى يسلم سلاحه ..!

وعاد المشايخ يقولون ذلك .. لكن العامة تجمعوا بهم ، ولعنوهم ، واتهموهم بأنهم قبضوا الدنانير .. لكن كبار البلد كالسيد « المحروقى » ، ومشايخ الأزهر .. قبلوا الحل من أجل حقن الدماء .. لكن بعض الدهماء رفضوا وأصروا على الرفض ..!

لكن حارة « درب المسمط » انشغلت عن كل هذا .. أخرجها من الهول الذى تعانيه كجزء من « القاهرة » .. أن « متولى » قد عاد .. « متولى » عاد ، وضربت أم « زاهية» على صدرها ، انعقد لسانها فى فمها ، وماتت أشياء كثيرة فى حلقها .. واجتمع أهل الحارة يستمعون إلى قصته .. لقد نشروا فى الصحراء .. أباد الفرنسيس الجماعة التى كان بها مع رجال « إبراهيم بك » عند صحراء « القرنة » .. ولم يجد معه سوى جندى مغربى وكان هو الآخر فارا .. وأنهكهما الظمأ .. وقبل أن يوشكا على الهلاك . عثر على بئر مغطى بحجر .. فأدركا أنه يستعمل ، وزحزحا الحجر ، وخلع ملابسه وهبط فى البئر ، واستطاع أن يشرب ، وأن يملأ للمغربى ما يشرب منه .. ولكنه فوجىء به بعدها يلقى إليه بالحبل ، ويغلق فوهة البئر بالحجر .. فقد طمع فيما كان معه من دنانير ، وفى الخاتم .. وبعد أكثر من يومين .. جاء بعض الرعاة يسقون .. فأخرجوه ، وظل عندهم إلى أن استطاع أن يصل ..!

وكانت « القـاهرة » كلها قد طلبت مبدأ الهدنة إلا هذا « المغربى » الذى ظل يحرض الناس ، ويخطب فيهم .. أن المشايخ باعوهم للفرنسيس ، وتصدى له أحدهم فصاح فيه أن الخراب أحاط بالبلد ، وأن الأرزاق توقفت ، والناس فى « الناصرية » أكلوا ميتة ، وذبحـوا الحمير .. فماذا يريد من البلد .. ؟ ثم إنه « مغربى » ، وليس من أبناء البلد .. فلماذا كل هذا الحماس .. وحاول « المغربى » أن يقاطعه ، وأن يحرض رجاله ضده .. لكن الشيخ صاح .. وهو يخرج صحيفة مطوية قرأها بين الناس ، وقال هذه الرسالة بخط الشيخ إلى الفرنسيس .. إنه ضالع معهم ، وهو يعمل جاسوسا لهم ، وقد ارتدى العمة والجبة والقفطان ليخدعكم .. أما أصله فهو جندى فى الجيش الفرنسى .. وجن جنون أتباعه فهجموا عليه ، فطرحوه أرضا وجزوا عنقه .. قبل أن يصل إليه « متـولى » بخطوات وأسرع الجميع إلى قصره الذى اتخذه فى « الخرنفش » لكن « متولى » سبقهم فصعد إلى الحريم ، وخرت « زاهية » بين يديه مغشيا عليها .. فحملها إلى بيت والدتها .. وحينما أفاقت .. أغمضت عينيها مرة أخرى .. فهى لا تصدق ما حدث .. وسقط الزمن من حسـابها .. حينما تقلبت فى فراشها .. وقالت : رأيت فى نومى يامتولى أنك لم تعد وأنه حدث وحدث وأسكتها « متولى » بقبلة طويلة على فمها .. !!





الحب والمملوك



الحب .. و .. المملوك

تهز أعماقه .. تمشى فى كيانه .. فالذى لا شك فيه .. أن شيئا ضخما يقع الآن فى حياته .. يرفعه من الحضيض إلى القمة .. بالأمس فقط أتيح له أن يدخل على خليفة المسلمين .. سلطان البرين والبحرين .. وأن يجثو على قدميه بين يديه .. ويقبل ركبتيه الشريفتين ، وهو يرفع إليه مفتاح « المدينة » .

ومفتاح « مكة » فوق صحائف من الذهب والفضة ..! لقد جاء بهما « الباشا الوالى » محمد على .. بعد أن أخضع الأعداء واصطحب بعضهم أسرى .. ثم اختاره دون المماليك .. ليحملها إلى « إستامبول » .. وذلك لأن الباشا يؤثره على الآخرين ، ويثق به إلى حد بعيد ..! فقد تلقاه هدية من قاضى قضاة مصر ..!

إن الشرف الذى ناله سوف يحسده عليه جميع المماليك ، والأمراء .. فهو لم يعد المملوك « لطيف » ، وإنما منذ الأمس صار « لطيف باشا » .. بعد الإنعام عليه بالباشوية ، وهى سوف تجعله يزهو على كل الأمراء والمماليك ، وتعطيه الحق فى أن يتقلد أرفع الوظائف التى تلى « الباشا الوالى » ، وتزيد من مخصصاته ، وترفع عدد أتباعه ، وقصوره وجواريه ..!

ولاحت منه نظرة إلى حملة المجامر ، والمباخر ، وكبار رجال الدولة ، والأعيان الذين أقبلوا يحيطون به ليكون لهم شرف استقباله بأمر السلطان ، وفرق الجنود ، والخيالة ، والطبول والمزامير التى تتقدمه ، وهو يسير كالفاتح .. يحمل « المفتاحين الشريفين » والجماهير تهلل وتكبر على الجانبين وتشير إليه ، وهو يشق أكبر شوارع « إستامبول » .. إن « الباشا » نفسه لم يكتب له كل هذا الشرف ..!!

إن « الباشا » أشعل حرب الحجاز .. لتكون خيراً وبركة على « لطيف » وحده دون البشر جميعا .. ذلك لأنه الموعود الذى يستحق ذلك الشرف .. ألم يقل له « حسن الباليبى » وهو يقرأ له الفنجال .. أنه سيكون عظيما كالشمس ، وأنه سوف يلمس النصر بيديه .. وقد نال بالأمس شرف ملامسة السلطان ..! ألم يقل له منذ شهرين فى آخر مرة رآه فيها .. « أبشر يالطيف بك .. لقد آن أوانك وحان موعدك .. فكن على بصيرة من أمرك ولا تنسنا » ..!

وحينما خلا إلى نفسه فى جناح قصر الضيافة الذى أعد له .. قام فارتدى خلعة السلطان عليه ، وتمنطق بوشاح الباشوية ، ورشق فى القلنسوة السلطانية .. الجواهر التى أهديت إليه .. ثم مشى يختال فى الغرفة ، ويطيل النظر إلى نفسه فى المرآة .. كم يتمنى لو أن « ياقوتة » جاريته رأته وهو فى الموكب .. « ياقوتة » التى بكت بكل دموعها ، وهى تودعه .. لو أنها كانت تعلم ، ولو كان فى وسعه لصحبها لكى ترى « إستامبول » كلها وهى تستقبله ..!

لكنه ماله لا يتذكر سواها ..؟ ومن أحق منها .. أليست هى الإنسانة الوحيدة التى علمت قلبه كيف يخفق بالحب .. كل الجوارى اللاتى عبرن حياته قبل ذلك .. لم يفعلن به ما فعلته هى .. أقصى من حازت رضاه أمسك بها أسبوعا .. ثم نسيها ، وإما أن تباع أو تهدى أو تستبدل .. إلا « ياقوتة » فقد علمته مالم يكن فى الإمكان أن يتعلمه .. علمته أن يغوص فى أعماق من يحبه ، وأن يترك محبوبه يغوص فيه .. جعلته يؤمن بأن الحب أحاسيس متجددة ، ورغبة فيها مشاركة أبدية الأمد بلا نهاية .. وقد كان لا يعرف إلا السطحية فى الرغبات .. فلا هو ولا من على شاكلته من المماليك .. كان فى استطاعتهم أن يحبوا .. فقد جلبواصغارا ، وأجبروا على نسيان آبائهم وأمهاتهم ، وأطلقوا فى رحاب الأمراء .. يعيشون فى قطعان .. يلقون كل رعاية ممتازة ، ويتعلمون فنون القتال ، ويدرسون بالقدر الذى يعدهم للمهام المناطة بهم .. لا حب ، ولا عطف ، ولا لمسة حب فى حياتهم .. فالأمراء يصنعون منهم قتلة ، وقادة حرب ، وفى سبيل ذلك يخلون قلوبهم من إنسانيتهم شيئاً فشيئاً .. والحب يبدأ بالإنسان ، وينتهى به .. وقد زوى الإنسان وذبل فى ضمير هؤلاء المماليك ، ولم يعد له وجود ..!

« ياقوتة » صنعت معجزة إذ أعادت إليه إنسانيته .. هو الآن ، ورغم البعد الذى يفصل بينهما برا وبحرا ، ومكانا ، لا يضيره أن يعترف بحبها .. كم هو مشوق إليها الآن — يتمنى لو رأته فى النعمة السلطانية — فهى الوحيدة التى يريدها أن تشاركه هذه الفرصة ..!

وذهب ليلاً فاستأذن فى العودة من السلطان ، وأصدر أمراً ، إلى المركب لتكون جاهزة فى الغد .. وفي ٢٨ مارس ١٨١٣ وصل إلى القاهرة ، وشاعت أخبار النعمة ، والخلع السلطانية ، ورتبة « الباشوية » وأوغر ذلك صدور المماليك عليه ، والأمراء .. لكن إحساس المماليك بأنهم من جنسه وطبقته جعل حقدهم عليه أقل من الأمراء .. بل إن بعضهم كان يتيه على الأمراء بما حصل عليه مملوك مثلهم من الشرف ..!

« ياقوتة » استقبلته فى جناحها .. ظلت تعانقه ، وتتركه لتتحقق فيه .. ثم تعاود عناقه ، وهى لا تصدق أنه عاد إليها كان فى عينيها أكثر من عشق ، وأكثر من حب . كانت ترى فيه أهلها الذين لا تعرفهم ، وترى فيه عصمتها من الضياع ، وترى فيه

مستقبلها المجهول .. تعانقه ، وتهيم فى سمائه وهو بين يديها .. سعيدة فوق سعادة البشر .. لأنها علمته الحب ، واعترف لها به ، أحست بشوقه فى نظراته ، وهو يملأ بصره منها .. شوق حار .. طاهر .. صادق كلبن الأم فى فم الطفل .. !

وهمست « ياقوتة » فى أذنه وهى ترقيه بالبخور .. أن حساده أصبحوا أكثر من أحبابه .. وأنها ترجوه وتتوسل إليه أن يحذر « الكتخدا » .. لكنه رمقها بنظرة صارمة متسائلة ، وهو يضع القلنسوة على رأسه .. فغضت طرفها ، وهى تقول .. إنها لاحظت أن جوارى « الكتخدا » ينظرن إليها بحسد ، ويتهامسن همسا مسموعا عن النعيم الذى أصابه فجأة .. كان ذلك عندما التقت بهن فى الحمام فى الأسبوع الماضى ..!

لكن « لطيف باشا » لم يأبه .. كان واثقا من عطف « الباشا » الوالى . ومنذ أن عاد من « إستامبول » ، وهو يعامل كل كبار موظفى الدولة بالازدراء .. فهو « باشا » رغم أنوفهم جميعا ، وهم أذلوه ، وأذلوا المماليك بما فيه الكفاية .. لن يعامل أى أمير إلا بالاحتقار الذى يستحقه .. وسوف يجعل من المماليك عصبته التى يعتمد عليها ، ويعتز بها ..!

وانتهزها « الكتخدا » فرصة ، ونقل إلى « الباشا » .. أن « لطيف » يريد من رجال الدولة أن يعاملوه معاملة « الباشوات » ، وأنه يستعلى عليهم ، وأنه يقرب أبناء جنسه من المماليك ، ويشترى قلوبهم بالبذخ عليهم ، ولا يستبعد أن يكون فى سبيله إلى تدبير أمر من الأمور .. فمنذ أن عاد من « إستامبول » ، وهو يتصرف كأن السلطان أعطاه فرمانا بالبلاد .. وبصق « الباشا » ، ولم يزد لصغر شأن ذلك « اللطيف » إلا أن قال « للكتخدا » .. « اجعله تحت بصرك وتولاه » ..!

سافر « الباشا » إلى الصعيد ، وترك الأمور « حبالى » توشك على وضع الحوادث الضخام .. وتقدم « لطيف باشا » إلى الديوان ، وكبار الدولة فى اجتماع ، وهو من بينهم .. فطلب زيادة فى « أعلاف » خيوله ، ورواتب رجاله ، ومخصصات قصره .. فتصدى « الكتخدا » له ، وأبدى أن صاحب البلاد على سفر ، وأنه لا يستطيع أن يوافق على مثل هذا الطلب .. وكبر على « لطيف » أن يجيبه « للكتخدا » بهذه الإجابة .. فرد عليه بكلام غليظ حقره فيه .. فرد عليه « الكتخدا » التحية بأحسن منها .. فغادر المجلس ، وهو يرمى الجميع بالجهل والاحتقار ..!

وما كاد يصل إلى بيته .. حتى أرسل ينادى فى المماليك .. أن يهرعوا إليه بخيولهم ، وأسلحتهم .. لإجراء تدريبات السباق .. ونقلت عيون « الكتخدا » التى بثها لرصد حركاته الخبر إليه .. فأسرع بإحضار كبير المماليك يسأله خبر .. الاستعدادات عند كل المماليك ، وفى كل الجوقات .. وقال كبيرهم .. إن « لطيف باشا » طلب ذلك

لتدريبات السباق ، والمزاريق ، وقفز الحواجز التى تجرى بين الحين والحين .. لكن « الكتخدا » قال إن موعد التدريبات لم يحن بعد .. وإن عليهم أن يعودوا « كما كانوا » فلا يلبى أحد دعوة « لطيف باشا » .

وحانت الفرصة « للكتخدا » أسرع بعقد المجلس من كبار رجال الدولة ، ومن بينهم « إسماعيل باشا » ابن الوالى الباشا « محمد على » ، و « دبوس بك » و « أغلى » ، « وصالح بك السلحدار » « وأحمد بك الخازندار » ، وانتزع قرارا باستدعائه لسؤاله عن سر هذه الحركات المريبة .. فذهب إليه « دبوس بك » يستدعيه لكنه رفض أن يغادر قصره ، وأرسل يقول إنه لن يذهب إلى الديوان أبدا حتى يعود « الباشا » .. وكان المجلس لم ينفض فى انتظار عودة « دبوس بك » وعلى « لطيف باشا » الطاعة .. والمثول بين يدى المجلس أو الخروج « منفياً » من البلد الآن وفوراً .. فلما عاد إليه « دبوس بك » ، ليبلغه القرار الأخير .. أجاب بأنه سوف يخرج فى الصباح ، ويغادر القاهرة .. لكنه يطلب الأمان .. حتى لا يتربصوا به ، ويقتلوه غدرا ..! ولكن « الكتخدا » لم ينتظر حتى الصباح .. فأرسل تجريدة قوامها أكثر من ألفى جندى ، فطوقوا قصر « لطيف باشا » فى « سويقة العزى » ، وحاولوا اختراق أبوابه المحصنة ففشلوا .. فقد استمات رجال حرس « لطيف » فى الدفاع .. فلما أعيتهم الحيل .. عمدوا إلى الهجوم على المنازل ، والحوانيت المجاورة للقصر .. فخربوها ، ووثبوا من السطوح إلى أسوار القصر .. ثم هبطوا فى ساحته ، وعاثوا فيه فسادا . وتقتيلا فى سكانه . فلم يفرقوا بين الشيوخ والنساء ، والأطفال ، والجنود ، وأشعلوا النيران فى بعض أركانه ، وأعملوا السلب والنهب فى أركان أخرى .

لجأ « لطيف باشا » إلى جناح « ياقوتة » يودعها الوداع الأخير قبل أن يفر من مخبأ يعرفه جيدا .. وأصرت على أن ترافقه رغم الأخطار التى تحف بالرحلة .. رجت توسلت .. بكت .. تعطل .. توقف لكى يقنعها بأن تتركه يواجه مصيره .. غلبه الوقت .. اقتربت الأصوات الهمجية .. ازداد اقترابها .. الطرقات على باب الحريم بلا حياء .. زلزلوا الجناح .. ينادون عليه .. لابد أنهم عرفوا أنه لجأ إلى هنا .. أن يحطموا الباب .. صاحت فيهم « ياقوتة » .. طلبت منهم أن يسمعوا إليها .. قالت إنها تأمرهم أن يتراجعوا عن الباب حتى تخرج « الحريم » ولهم بعد ذلك أن يفتشوا الحرملك كما يريدون ..

وتراجع الجنود وعيونهم مركزة على الباب .. الذى انفتح ، وخرجت منه جارية .. يغطيها الرداء من قمة رأسها إلى أخمص قدمها .. ورغم ذلك فقد كانت أعضاء جسدها

الرائعة التكوين .. توشك أن تعلن عن نفسها .. ثم اقتحم الفرسان الجناح.. وراحوا يفتشون عنه هنا وهناك .. إلى أن فاجأهم فى ملابسه الكاملة ، وأعمل فيهم سيفه ، وراح يزوغ من ضرباتهم ، ويهاجمهم فيصيبهم ، ولا يصيبونه ، وكان لمعرفته بدهاليز الحرملك وسراديبه .. السر فى تفوقه عليهم ..رغم أن الفرقة التى كانت مكلفة بإحضار رأسه .. فاق عددها خمسة عشر رجلا .. وأصاب منهم ثمانية إصابات قاتلة .. ثم كمن له أحدهم واغتاله فجأة .. فصرخ ، وسقط يتخبط .. فأجهز عليه .

ولما اقتربوا يجزون رأسه لحملها إلى « الكتخدا » .. وكانت القلنسوة قد تدحرجت بجانبه .. وقفوا ، وقد أخذتهم الدهشة .. كانت الصديقة « ياقوتة » .. أما « لطيف » فكان قد تمكن من الهرب .. !!







الفارس والحصان



الفارس والحصـــان

تشققت الأرض .. انكسر السيف .. سقط القمر .. تناثر شظايا .. براقة تخطف البصر .. تختفي في الشقوق .. حتى الخيل .. سقط الحصان بالفارس .. مذبوحا بطعنات السيوف .. حاول أن يتناسى دماءه التي تنزف من عنقه .. حتى لا يخذل فارسه .. فالأعجم يدرك ما يحمل .. لكن غلبته آلامه .. عجز عن حمل عنقه .. فتدلت بين قدميه الأماميتين .. انكفأ ، وانقلب بجواره الفارس الجريح ..

مازالت ساقه في الركاب .. بلغت المأساة قمتها .. عجز الفارس وقد شلت يده بالسيف .. عن حماية نفسه ، وعن حماية الحصان .. وود الحصان المحتضر أن يتخبط .. ليموت كما تموت الخيول .. لكن حرصه على سيده .. ألا يصيبه في تخبطه .. جعله يموت مشلول السيقان .. كما يموت الشرفاء ، وعينه على فارسه .. ثم صهل في أنين .. يودع سيده .. ينهي حياته .. يحذره من غدر الإنسان بأخيه الإنسان ...!

وتخلص « علي بك الكبير » من تحت حصانه .. زحف قليلا ، والمعركة تحتدم حوله .. رأى الدنيا من خلال غلالة حمراء .. وأحس بلهب في عينيه .. وفي فمه طعم الملح .. مد يده السليمة إلى وجهه .. عرف السر .. كانت جبهته تشخب دما .. تتدلى على وجهه .. وفي ظهره سيخ من الحديد المحمى .. هي طعنة سيف رآها وهي تهوى نحوه ، وفرسه ينكفي به .. وأخرى في ساقه .. عند الفخذ .. كأن ذئابا تنهشها ..هي النهاية لا خوف منها .. لكن آلامها تتضاعف .. لأنها جاءت من التلميذ .. علمه « علي بك الكبير » لكي يكون له فكان عليه .. أراده سيفا معه فكان سيفا ضده .. فهو يتجرع الآن غصتين .. غصة القتل والهزيمة ، وغصة نكران الجميل ..!!

وحوافر الخيل تصطك بجانبه .. يتوقع أن يموت بين لحظة وأخرى .. كل شيء يثقل فيه .. حتى الآلام تفاقمت .. تصاعدت بلغت ذروتها .. فلما فاقت قدرته .. مات شعوره بها .. شيئاً فشيئا .. لم يعد يشعر بأعضائه المصابة .. إنه يهوى الآن .. يسقط في بئر مظلمة .. يسقط حادا كأنه قذف من مدفع .. الظلام الغارق في الاحمرار يطبق عليه .. ورغم الحركة العنيفة التي تدب حوله فوق الرمال .. فإن الصمت يمشي فيه .. يوشك على السكون .. ودماء حصانه تتسرب حوله .. ترسم جزيرة لرجل في بحيرة من الدم ..!

ويخفت كل شيء من حوله .. رجاله يهربون فارساً إثر فارس ، انطفأ المصباح ، ولابد أن تختفى الفراشات .. انكسر السيف فى يد البطل .. وعن قريب يبحث المنتصر « محمـد أبو الدهب » .. عن جثة المهزوم « على بك الكبيـر » ، وليحز رأسـه .. أو يحملها إليه أحد أتباعه .. ليحصل على مكافأة ..!

وتمنى الفارس لو اتسعت لحظة موته .. ليحزن على نفسه .. نفس الإنسان الذى أراد أن يكون شيئا بعد ضياع .. فكان .. وفى سبيل ذلك عانى الكثير ، وأحسن كثيرا ، وأساء كثيرا .. لكن بالقطع كانت حسناته أضعاف سيئاته ..!

فى هذه اللحظات التى يجب أن تتوقف فيها الأرض عن الدوران ..تنتهى حياة الطفل الذى جاء من ظهر قُسيّس فى بلاد الأناضول .. ثم خطفه النخاسون ، وبيع فى « القاهرة » .. ليدفع به إلى مدرسة مماليك « إبراهيم كتخدا القاذوغلى » ليصير مملوكا لسيده .. وفارسا من فرسانه .. وحمل وهو فى المدرسة .. اسم « على بك قبطان » .. ثم صار « على القاذووغلى » نسبة إلى سيده .. ثم أصبح « على بك الكبير » عندما ارتفع نجمه فعلا صيته ، وولى مشيخة البلد ..!

وقد وعى الدرس من أستاذه « إبراهيم كتخدا » فأكثر من شراء المماليك ليجعلهم دروعه التى يتحصن خلفها ، وسيوفه التى يقاتل بها .. واستطاع بقوة سطوتهم التى يدعمها نفوذه .. أن يتبوأ المراكز الهامة ، والحساسة ، والخطرة .. وحينما خرج أميرا على الحج .. تخوف بعضهم عليه من الأعراب فى الطريق .. لكنه كان قد اصطحب أكثر من أربعة آلاف مملوك من مماليكه وبعض العسكر .. فلما تصدى له الأعراب لقنهم درسا ما تلقوه من أحد قبله .. وأمن الطريق لبقية القوافل .. بعد أن أسر البعض ، وأرسل جماجم بعضهم إلى « القاهرة » .. محمولة على كثير من الجمال .

كانت هذه الواقعة .. هى الناقوس الذى لفت أنظار « القاهرة » إليه .. يوم عودته .. خرج الوالى بنفسه لاستقباله ، وأمر أن تزين « القاهرة » ثلاثة أيام ، وراح مماليكه يستعرضون قوتهم ، وفروسيتهم أمام الجميع .. ومن منصب إلى منصب .. يفرض « على بك الكبير » رأيه ، ويحشد فى المناصب المساعدة رجاله ، ويحيط نفسه بحاشية ، وبموكب لا يسير إلا به ، بعضهم يكون فى المقدمة وبعضهم يتأخرون حتى يكونوا فى المؤخرة .. وبهذا العدد الضخم من المماليك ألقى الرعب فى قلوب الآخرين ، ومهد لنفسه الطريق إلى حكم البلاد وحده .. فلما تحرك نحو منصب شيخ البلد ، وكان شاغرا .. تراجع جميع الذين كانوا يتمنونه ، وكتموا رغباتهم فى أعماقهم .. ووقفوا بجانبه ضد من كان يناوئه .. وكان أول من ناصروه ، وأيدوه فى دعوته .. « عبد الرحمن الكتخدا » كبير الجند والقائد العام وقتها .. ورضى الأمراء أن يتولى مشيخة البلد دونهم .. لا اعترافا له بالعبقرية ، ولكن خوفا من بطشه ، وجبروت مماليكه .. وهكذا أصبحت مشيخة البلد

شيئا ضيقا على أحلامه .. فحرض المماليك ، والأمراء على القوة ضد الوالى ، وجعل رجاله يقودون المظاهرة .. التى صعدت فيها الخيالة ، بكل فرسانها إلى القلعة .. فخلعوا « الوالى » وهبطوا به إلى أحد القصور .. فسجنوه .. وأخذوا « على بك الكبير » فنادوا به « قائمقام » وأرسلوا إلى « إستامبول » يبلغونها ما فعلوا ، ولم يسع « إستامبول » إلا أن توافق على ما حدث .. تمهيدا لإرسال « الوالى » الجديد ..!

ورتب « على بك الكبير » كل شىء وهو فى « القائمقامية » حتى إذا ما وصل الوالى الجديد ، وجد نفسه لا يحكم إلا نفسه ، وأن جيش القلعة .. لا يستطيع أن يغادرها إلا إذا جاء رجال « على بك الكبير » لحمايته .. واستدار « على بك » يستبعد كل من يشم منه رائحة معارضة له من الأمراء .. وطاردهم مطاردة انتهت بنفى « عبد الرحمن الكتخدا » الذى كان سببا فى توليته مشيخة البلد فى أول الأمر .. لكن الظروف تغيرت ، والهدف الآن .. هو الولاية ذاتها .. ثم حكم « مصر » بعيدا عن الخلافة ، والاستقلال بها .. وهو هدف كبير .. وفى سبيله .. صفى « على بك » كل أمير معارض ، أو كبير غير راض عنه ، وبخروج الأمير أو موته .. يسلم قصوره ، وإقطاعياته إلى مماليك « على بك » ليكونوا أكثر إخلاصا ، وأشد إيمانا ، وكان على رأسهم « محمد بك أبو الدهب » .. وحينما نادى بنفسه حاكما على « مصر » .. مستقلا عن تركيا وأبرم معاهدة مع روسيا .. فى الوقت الذى كانت تستعد فيه لحرب تركيا .. على أن تقره بعد ذلك فى حكم « مصر » ..!

وتمرد الشام على السلطان .. فرجاه أن يرسل من عنده « العسكر » لإخضاعه .. فسير « العسكر » بقيادة تلميذه المخلص جدا « محمد أبو الدهب » فأخضع الشام ، وأرسل جماجم القتلى الكبار من القواد إلى « مصر » .. على عدة جمال .. وظل نصف عام يقاتل هناك .. إلى أن فتحت له كل الشام أبوابها ، واحتل قلاعها .. ثم عاد من هناك وفى ذهنه مؤامرة .. فما كاد يقيم فى « القاهرة » مع جنوده العائدين ، وكبار العسكر خمسة عشر يوما .. حتى حاصر « على بك الكبير » ، وأجبره على الفرار ، ونصب نفسه مكانه .. وهرب « على بك » إلى « الصعيد » .. ثم إلى « السويس » .. ثم إلى « غزة » حيث بقى هناك إلى أن جمع بعض الرجال حوله .. ثم أرسل إليه « محمد أبو الدهب » بعض الجواسيس .. الذين أوهموه أن « القاهرة » تنتظره .. وأنه لو هجم على « أبو الدهب » لخذلته « القاهرة » من الخلف ، وهكذا يقضى على « أبو الدهب » ، وبلع الطعم « على بك » وحضر ، وكان هذا اللقاء التاريخى فى « الصالحية » ..!

إنها النهاية ولاشك فى ذلك .. ها هو رجل يتقدم على فرس .. وجاءه صوت يخترق أذنيه كأنه يجىء من الآخرة .. صاح الصوت .. « على بك الكبير » .. إنه « على بك الكبير » .. الرجل الفارس ينزل من على حصانه .. والسيف فى يده .. ياللنهاية الطيبة .. إن الذى سيجز عنقه هو « محمد أبو الدهب » .. نفسه .. اقترب منه

الفارس .. وصاح « محمد أبو الدهب » سيدى وأستاذى « على بك » .. لابد أنها حيلة أخرى ليعطيه عنقه دون مقاومة ، ومن أين له بهذه المقاومة ، وحاول أن يفتح عينه التى غشيتها الدماء .. كان « محمد أبو الدهب » ذاته .. وحاول « على بك » أن يستدير بعنقه عنه .. آخر احتقار يمكن أن يوجهه له .. لكنه عجز .. وانحنى الفارس .. فاحتضن الجريح ، وساعده على الوقوف .. حمله من تحت إبطه .. وسار به فتقدم حملة « المحفة » .. لكنه صرفهم .. أصر على أن يحمل سيده وأستاذه بنفسه .. طوقه من تحت إبطيه ، وحمله على كتفه .. حتى أتى به خيمته .. وأرسل فى طلب المطببين ، وراح يغسل جراحه بيديه ..!

يالك من داهية يا « أبو الدهب » .. لو أنه جز رأسه لكان ذلك أهون على « على بك » ولولا عجزه عن عمل أى شىء .. لمنعه من إسداء هذا الجميل إليه .. إنه لا يكفر عن سيئاته .. بل يضيف إلى سيئاته .. أسوأ أعماله .. فى شكل جميل .. يريد لنفسه مكانة فى التاريخ .. لقد رحم أستاذه ، وعفا عنه ، وهو قادر على إلحاق كل الضرر به .. ليته لم يفعل .. وحينما هدأت جراحه ، واستطاع أن يطلب الماء .. ليطفىء الحريق الذى كان يشعر به يشوى كبده .. أسرع « أبو الدهب » يسأله فى ذلة أمام حاشيته .. هل أنت راض عنى ياسيدى ..؟ ولم يجب « على بك » أدار وجهه وصمت .. وجعل حوله الأطباء ، وظل خمسة عشر يوما يعالج .. إلى أن أعلن أنه مات متأثرا بجراحه ..!

وشيعت جنازته فى احتفال مهيب .. سار أمامها « أبو الدهب » ، وتلقى فيه التعازى .. إلا أن أبناء البلد تهامسوا .. أن السيد مات بالسم ، وليس من آلام الجراح ..! لكن أحدا من الأمراء لم يستطع أن ينقل ما يشاع إلى أسماع « أبو الدهب » .. الذى وضع النهاية .. للطفل الذى ولد فى الأناضول ، وبيع فى « القاهرة » ، وأذل السلطان ، وهتف باسمه فى « القاهرة » ، ومدن الشام .. وجرح فى صحراء الصالحية .. ثم مات فى « القاهرة » ..!!




الظلال



الظـــــــلال

حينما يعربد الظلم .. يطبق الظلام ..! وتبكى الشمعة مذعورة من أشباح الظلمة ..! وينتحر الضوء ليدفن فى مقبرة الليل ..! ويتحول الجميع إلى ظلال ، فقدت أصولها ..! ويفقأ عين الشمس صباع القزم ..! وتصبح الدنيا ليلا ..بلا نهار ..!

*** * تداعت الأيدى برايات القافلة التى أوشكت أن تنكس ..!**

الإرهاق يفتك بالجميع .. الفرسان ، والخيول والكلاب التى تتابع القافلة .. فقد اجتاح الخيول مرض غريب .. يرتعش الحصان لحظة إصابته به .. تتعثر خطواته .. يعتريه عرق بارد .. ثم ينبطح على الأرض .. تعجز قوائمه عن حمله .. تصيبه هستيريا .. يئن أنينا طويلا .. كأنه يعتذر لصاحبه .. ثم يلفظ أنفاسه ..!

والفرسان على ظهور الخيول .. مجهدون .. مرهقون .. يغفون .. بعضهم يسقط .. وبعضهم يستيقظ فى اللحظة الأخيرة .. اجتازوا بستانا من نخيل .. حلقت فوقهم الغربان السود .. راحت تنعق ، وتضرب بأجنحتها ، ورفع بعضهم عيونه إلى فوق ، وحوقل ، وبعضهم جز على أسنانه ..!

فمنذ أن غادرت القافلة « بنى سويف » فجرا .. لم تتوقف للراحة ، وها هو النهار ينتصف ، الشمس ، تشوى كل شىء ، ولكن « مراد بك » يبدو مصرا على إلغاء الراحة .. حتى يصلوا « الجيزة » الليلة .. لكنهم يتكاسلون ، وهم يعبرون مثل هذه البساتين .. يلتقطون أنفاسهم .. فقد أقبلوا يسيرون مسيرتهم منذ أيام من أقصى الصعيد .. من « جرجا » ..!

وأصر « مراد بك » على أن يسير بهم بعيدا عن « النيل » .. بالقرب من سفح الجبل الغربى .. حتى يأمن مفاجآت النيل ، وفى ذات الوقت .. ليحصل على أعلاف الخيول ، وطعام الفرسان من القرى المتصلة على طول الطريق رغم وعورة السبل وسوء المسالك ، فاجتمع الإرهاق على الفرسان ، واستبد المرض بالخيول .. وسقطت القافلة .. فى قبضة حالة نفسية .. كئيبة .. قاسية .. جعلت أعصابهم أوهى من خيوط العنكبوت .. أحد الجاويشية لم يتحمل رؤية حصانه وهو يموت .. فجرد سيفه محاولا أن يطعن به نفسه .. لولا أنهم أمسكوا به .. فلما جردوه منه .. راح يبكى ، ويلطم ، ويهيل التراب على

رأسه ..! وقال بعضهم لبعض .. إنه يبكى نفسه ، وينعى حظه الذى ألقى به مع « مراد بك » ..! ويبكى أولاده الذين تركهم فى « القاهرة » .. وهام على وجهه فى الصعيد مع سيده ..! فقد أصبح على يقين .. من أنه سوف يموت كما مات حصانه ويدفن فى قبر مجهول .. وحينما أوغل فى بكائه ، وأمعن فى هستيريته .. هب فيهم صارخا أن يعطوه سيفه .. فليس بينهم من لن يفعل ذلك .. إن لم يكن اليوم فغدا ..!

صفعتهم جملته وكلماته .. كل عبارة قالها هوت على ظهورهم كالسياط .. فكلهم كانوا مثله .. عجزاً ، وقهرا ، وحزنا ..!

ألقى عليهم كلماته .. أحسوا كأنهم سقطوا فجأة فى شباك .. صمتوا وزاغت أبصارهم .. ران الصمت رغم الضجيج الذى يحيط بهم .. تعاقبت على ملامحهم مشاعر شتى متباينة .. أخرجه صمتهم من جنونه .. لقد أصاب جراحهم ، وهو يتخبط فى جراحه .. تقلصت ملامحهم ، ودمدمت الدموع خلف أجفانهم .. أفاق من غشيته .. فقد حطم فى ثورة غضبه وأحزانه .. بعض القلوب التى كان يحبها ، والتى يدفع نصف عمره .. ولا يرى دمعة فى مآقيها ..!

اعتذر عما سببه لهم بإكبار ، فأشاحوا بوجوههم عنه .. والتمسوا له العذر .. لكنهم انفضوا .. حتى لا يرى كل منهم دموع صاحبه ..!

أخيرا شعروا أنهم ضحايا .. مزقهم الصراع المسعور بين السيدين الكبيرين .. « مراد بك » ، و « إبراهيم بك » .. كلما تخاصما .. تحاربوا هم ، وتضاربوا هم ، وإذا اتحد الطاغيتان نسيا الجميع .. فى غمرة المتع التى يغرقان فيها .. لا سيما « مراد بك » الذى له أكثر من أربعة قصور .. عدا قصر الروضة ..!

ومنذ أن أحس « مراد بك » بالخطر على نفسه .. إثر مشادة بينه وبين « إبراهيم بك » .. على تعيين « الكتخدا » فقد كان « مراد » يريده من رجاله ، والآخر يريده من رجاله .. فالكتخدا هو رئيس الباشجا وبشية الذين يقودون « الوجاقات » ، المعسكرات فى « القاهرة » .. ليلتها توجس خيفة من أن يقتله .. بعد أن تطوق قصوره أو يأخذه إلى السجن .. فأرسل إلى مماليكه أن يوافوه بجنودهم ، وكان عددهم يزيد على أربعة آلاف مملوك .. وخرج بهم فى غفلة إلى « البساتين » فجوز بهم « النيل » إلى « الجيزة » .. ثم اجتاح الصعيد .. فاستباحه له ولهم .. حتى استقر به المقام فى « جرجا » .. ولم يفكر فى العودة إلا بعد أن أرسل إليه « إبراهيم بك » .. بعض الأمراء والعلماء ، وعلى رأسهم ولده .. يرجونه العودة ، ويعطونه الأمان ، وينقلون إليه تحيات شيخ البلد « إبراهيم ك » .. فكل خلاف بينهما لا ضحية له .. سوى الرعية ، ومصالح الناس .. فقد انقطع

عن « القاهرة » .. كل شيء كان يصلها من الصعيد .. حتى المراكب الشراعية .. لم يعد يتوفر لها الأمن والأمان .. وانتشرت عصابات السلب والنهب بالإكراه .. على الطريق نهرا ، وبرا ..!

« مراد بك » كان خبيثا ، و « إبراهيم بك » أخبث منه .. فكلاهما تلميذٌ لمدرسة واحدة .. هى مدرسة « على بك الكبير » .. فلم يشأ أن يعود وحده مع مماليكه .. فقد تكون حيلة من « إبراهيم بك » للقبض عليه .. فعقد مع العرب ، والهوارة حلفا ، وساق الكثير من فرسانهم فى قافلته .. بعد أن وعدهم بما يحلمون به .. من جاه وعز .

* لابد أن يبلغ الليلة « الجيزة » بأى ثمن .. ففى ضحى الغد سوف يركب الوفد القادم لمفاوضته .. سيرفعون الراية عند « جزيرة الذهب » ، وسوف يعطيهم إشارة الأمان للعبور فإذا وافقوا على كل شروطه .. عبر معهم .. وإلا هاجم « القاهرة » وعبر بكل هذا الجيش .. بعد القتال ، وخلع « إبراهيم » من المشيخة ، واستباح « القاهرة » .. ثلاثة أيام ..! وهو يخشى إذا وصلوا « الضحى » ، ولم يجدوه فى مواجهتهم مع هذا العدد من رجاله .. عبروا إلى « الجيزة » بفرسانهم وأخلفوا شروطهم .. من أجل ذلك لم يستطع أحد .. أن يتقدم إليه بطلب راحة للقافلة المنهكة ..!

وثمة أمر بالغ الأهمية لم يفطن إليه أحد فى القافلة .. سوى الذين كانوا يحيطون « بمراد بك » .. فقد وصل قبيل الظهر فارس قادم من « القاهرة » .. كان يحمل رسالة إليه .. لكن أحدا لم يعرف أين هذه الرسالة ، ولا ما هو محتواها .. وقد انتحى « مراد » بالفارس ، وحمله ردا شفويا .. ثم مضى على حصانه السريع العدو كأنه من فرسان البريد ..!

كانت الرسالة من « نفيسة هانم المرادية » زوجته .. تخبره بأن يصر على ألا يعبر « النيل » إلا إذا أطلقت مدافع « القلعة » تحية له .. حتى يعلم الجميع مكانته ، وأنه سيد البلد ، وشريك شيخها فى المشيخة ، وتنحنى رؤوس الأمراء التى ارتفعت فى غيبته .. وتأكيدا لحسن نواياهم – أما إذا رفض هذا الشرط .. كان ذلك دليل الغدر المبيت ، والأفعال الخسيسة المنطوية فى حناياهم ..!

ورد « مراد » ، وقد حفزه الشوق المخبوء فى أعماقه .. إلى التصميم على مغامرة لا يقدر عليها إلا شاب فى سن المراهقة .. فقد طلب من « نفيسة هانم » أن تخرج بعد صلاة العشاء إلى « قصر الروضة » .. وحدها أو مع جارية واحدة على الأكثر .. ثم تنتظر لقاءه مع أذان الفجر تماما .. ولتحذر أن تشعل فى القصر مصباحا أو مشعلا .. فقد تكون عيونهم عليه فيغتالونه ليلا .. ولتنتظره فى الطابق الأول .. والحذر كل الحذر من أن يتسرب الخبر إلى أى مخلوق .. حتى الجارية التى سوف تذهب معها .. لا يجب أن

تخبرها .. إلا بعد أن يصلا إلى القصر ..! وفى منتصف الليل .. أو بعدها تنادى الحارس ، وتخبره أنها فى انتظار رسول قادم من « مراد بك » فإذا وصل فليتركه يمضى إلى الداخل دون أن يسأله .. لأنه سوف يكون فى ملابس « مراكبى » صعيدى .. حتى يعبر « النيل » دون أن يثير انتباه عيونهم ..!

فهل يستطيع ، وقد ارتبط بهذا الموعد .. أن يبيت بعيدا عن « الجيزة » ؟ .. وحينما وصلت القافلة عند « سقارة » .. نادى « الكتخدا » ، وتحدث معه طويلا .. حدد له مكان كل فرقة .. وطريقة انتشارهم من « الحوامدية » حتى « إمبابة » .. ثم انطلق مع الحرس الخاص به .. يسبق القافلة .. ليستريح بعض الوقت قبل وصولهم ، ولكى يكون على استعداد للقيام بمغامرته ، وحتى يتلقى رد « نفيسة هانم » على رسالته لها ..! وبلغ الأهرام قبل أذان العشاء .. فحط رحاله وترك بعض الحرس فى انتظارالقافلة ، ولم يأخذ معه سوى خمسة فرسان ، وانطلق شرقا إلى « النيل » .. وفى منتصف الطريق .. لقيه الفارس العائد بالبريد .. فقال له إنه أبلغ « نفيسة هانم » ، وإنها سوف تحاول الصعب والمستحيل لكى تحقق له رغبته .. فى لقاء الليلة .. فهى ليست بأقل منه شوقا إلى هذا اللقاء ..!

وظل مع رجاله طول الليل .. يقطع الشاطىء من « إمبابة » حتى ما بعد « جزيرة الذهب » لعله يجد مكانا صالحا للعبور .. لكن عيونهم كانت تنتشر على طول الشاطىء الشرقى .. إذ يبدو أن الحذر الذى أخذ نفسه به .. أخذوا هم أنفسهم به أيضا .. لكن ما هو الحل ؟ وانتصف الليل أو كاد .. وحاول مع رجاله أن يجد مكانا آمنا .. يعبر منه .. لكن من الواضح أنهم أعلنوا الليلة اليقظة التامة .. حتى لا يأخذهم على غرة .. وهو إذا غامر ، وركب أى زورق .. قد يسقط فى أيدى جنود حمقى يقضون عليه .. قبل أن يسلموه صيدا ثمينا « لإبراهيم بك » .. وكلما مضى الوقت تصاعدت أزمته النفسية .. وفى اللحظة الأخيرة .. لم يجد بدا من الاستسلام للحذر .. حتى لا يندم .. فأشار إلى « الفارس » الذى حمل إليه رسالتها ، وهو يتمتع بحرية العبور .. أنه يعبر فيلتقى بها فى نطاق السرية ، وينقل إليها اعتذاره .. شاكراً تجشمها مجيئها إلى « قصر الروضة » ..!

وإذا كانت شواطىء « النيل » وضعت تحت المراقبة الدقيقة .. فإن قلب « القاهرة » كان تحت مراقبة أدق .. وكلما همت « نفيسة هانم » بالخروج عادت إليها الجارية لتقول لها .. إن القصر محاط « بالبصاصين » ، وإن « الجماميز » كلها تحت عيون باعة جائلين لم ترهم قبل الآن .. وخشيت أن تخرج فتكون فخا لسقوط « مراد بك » ، وهى لا تستبعد أمرا مهما كان خسيسا .. على خسة « إبراهيم » ، ومماليكه الذين يصيبيهم بالكمد عودة « مراد بك » .. ولم تجد بدا من أن ترسل جاريتها لتلتقى به .. وتبلغه أسفها ، وترجوه أن يعود سريعا .. فكل شبر فى « القاهرة » تحت المراقبة .. وترددت الجارية رغم حبها وإخلاصها لسيدتها .. لكن لم يكن أمامها سوى إطاعة الأمر ..

فارتدت ملاءة تلفها من رأسها إلى قدمها .. ثم ركبت بغلة ، وأخذت أحد العبيد ليجرها .. واخترقت معه .. شوارع غير مأهولة إلى الروضة .. فلما وصلت إلى القصر .. وأوت إلى الطابق الأول .. قالت للحارس قرب منتصف الليل .. إنه قد يصل حامل رسالة من « مراد بك » فليدعه يدخل فور وصوله .. وحذار من أن يشعل أى مصباح على الأبواب أو داخل القصر ..!

بدأ الفجر يقترب .. بدأ المؤذنون ينشدون التواشيح التى تسبقه .. وتسلل من « النيل » رجل قفز من زورق صغير .. فأحاط به جنود « إبراهيم بك » فلما قربوا « الفوانيس » التى يحملونها من وجهه .. وقال لهم إنه صاحب مركب مسافرة إلى الصعيد .. ينوى صلاة الفجر فى مسجد « السيدة زينب » تركوه يمضى دون تعليق .. فقد كانت ملابسه تنبيء عن صدق قوله ..!

لكنه سعى بعد ذلك .. نحو « قصر الروضة » ، وهو فى حذر يمسك بخطواته .. إن كل شجاعته الآن تبخرت ، وتمنى لو أنه اعتذر عن هذه المهمة .. التى قد يدفع حياته ثمنا لها .. إنه لا يدرى كيف يستقبله حارس الباب .. إن أى ضجة يحدثها قد تؤدى به إلى المشنقة .. لكنه أيضا لم يستطع أن يعرف التفاصيل .. ولكنه يعتمد فقط على أنه التقى « بنفيسة هانم » ، وهى تعرفه ، وهو يعرفها .. لكن اللقاء سوف يتم فى الظلام .. وهى واثقة أن القادم « مراد بك » .. إنها حتى الآن لا تعرف أن القادم رسول من « مراد بك » وليس « مراداً » نفسه .. لذلك عليه أن يتكلم مجرد اللقاء .. ليعلمها أنه ليس « مراداً » ..

وبدأت كل أعضاء جسده ترتعش .. فالسقوط فى أيدى رجال « إبراهيم بك » أهون مما خطر بباله الآن .. إذن ماذا يمكنه أن يفعل ، لو أن « نفيسة هانم » .. ألقت بنفسها عليه ، وتحت جنح الظلام حصلت منه على ما يجب أن تحصل عليه .. وهى لابد تريد أن تكافىء « مـراد بك » على مغامرته .. بأن تحقق له الهدف الذى غامر من أجله .. !

إن مجرد مثوله بين يديها .. عليه أن يقول لها فى الظلمة .. سيدتى إن « البك » يعتذر .. فتفيق من أوهامها .. سيكون ذلك صدمة .. لكن ما ذنبه ..؟ إن صدمتها الليلة .. خير ألف مرة من الذى قد يقع لو أنه سكت ..

وتقدم فى خطوات متعثرة نحو القصر الذى كان يرابط فى الظلام .. كأنه قطعة من الليل .. وفى الطابق الأول .. كانت الجارية تجلس فى الغرفة الواسعة على أريكة من

الحرير ، وقد أضاءت شمعة ، وضعتها داخل « فانوس » .. أخفته في ركن بعيد ، وحجبت شعاعها بمنديل أسود .. فلم يظهر منه سوى أصبع ضوء يصعد على الجدار البعيد فى ذبول .. ثم يتبدد ، ويضيع قبل أن يصعد المتر الأول من الجدار .. وبقية الغرفة تزداد حلكة بهذا الشريط من النور المخنوق .. عملا بوصية « نفيسة هانم » .

وسألت نفسها ماذا تفعل إذا اندفع « مراد بك » .. فأخذها بكل شوقه ، وحرمانه على أنها « نفيسة هانم » ..؟ إنها تهمس فى أذنيه قائلة .. سيدى .. إن سيدتى تعتذر للرقابة المشددة حول القصر فى « الجماميز » .. وقد آثرت ألا تثير شكوكهم وشبهاتهم بخروجها .. فيقصون أثرها .. ثم تكون الكارثة .. لكن ماذا لو لم يمكنها من إلقاء كلماتها ، وهى تعلم مدى حبه لسيدتها وشوقه ، وقبل أن تنطق يكون عصرها بين ذراعيه ..

إن سيدتها شددت عليها ألا تطفىء الشمعة المخبأة ، فيرسخ فى ذهنه أنها مؤامرة ، وحينما أحست بخطواته .. قامت تطمئن على الشمعة ، فإذا بالشمعة تهب تطفئها الريح ، وأفزعها الظلام - فقامت تبحث عن عود ثقاب .. لكن خطوات القادم اقتربت .. وصلت إلى الباب .. اقتحم .. ملأت أنفاسه المكان .. مدت يدها فى الظلام وهى تقول سيدى .. فتلاقت يدها بيدى سيدها .. الذى سمعته يهتف « سيدتى » ثم جذبها فاحتواها فى صدره .. تحسس وجهها ، وضع يده على فمها يرجوها ألا تتكلم ، ووضعت هى يدها على فمه تزجوه ألا يتكلم ، لم يستطع أحد من الشبحين أن يميز الآخر فى الظلام .. الذى أطبق عليهما ، ولكن السكون كانت تجرحه الهمسات الحادة ..!!

استبدت بها رغبة شريرة .. فى أن تشعل الشمعة لكى ترى « مراد بك » ويراها .. ولم يكن قد أفاق إلى فعلتها فى الظلام .. فلما أضاءت الشمعة .. صرخ صرخة مكتومة .

أنت الجارية كهرمان ؟!

- صاحت :

- أنا كنت فاكراك « مراد بك » .

واتفقا أن يكتما الخبر ..!!

★★★

الحريم أيام المماليك



أيام خرساء



أيام خرســاء

الطبول تعلن على أهل المحروسة .. بداية « مولد الحسين » ، والمواكب بدأت تستعد للمسيرة .. الزينات ، والرايات على جانبي الطرقات ، ونواصي الحارات من باب زويلة حتى بين القصرين ، والشيخ « السادات » عاد منتصراً بعد صراعه مع العثمانيين إلى بيته فى المشهد الحسيني .. والليل تحول إلى نهار ..

أراد الوجدان الشعبى أن يعبر عن فرحته بعودة الشيخ « السادات » وفى ذات الوقت يعلى من شأن صاحب المولد .. وفى الليلة الرابعة عشرة .. خرجت المدينة كلها فى المسيرة .. ممثلة فى طوائفها ومشايخها .. شيخ الحدادين ، والنجارين .. والنحاسين والجزارين والنساجين والصياغ .. كل حرفة على عربة تجرها الخيول وقد صنعوا فوقها نموذجاً من الحرفة ووقف شيخها يمارسها .. وعلى جانبى الطريق .. يحتشد الناس .. كبارهم وصغارهم .. وفى المقدمة سادة الطرق الصوفية .. وتتوقف المسيرة أمام القصور ويبرز صاحب القصر أو أحد أتباعه .. فيلقى على المواكب « بدارات » من المال .. أو من المسك .. أو من الزهور .. وتتعالى الدعوات وتجأر الأصوات وتتصاعد التضرعات مع حلقات دخان البخور ..!!

وفى صبيحة الليلة الكبيرة .. خرج « إسماعيل باشا » ، ولم يكن وصله الفرمان باستوزاره إلا من يومين .. فعقد الديوان فى بيته بالأزبكية .. ثم غادره فى موكب من الأمراء والوجاقلية ، والعساكر الرومية والمصرية وعلى رأسه الطلخان والقفطان الأطلسى وأمامه السعاة والجاويشية والملازمون وخلفه النوبة التركية وشق « القاهرة » فى موكب عظيم .. ليؤكد للناس أن أيام « إبراهيم بك ومراد بك » مضت ولن تعود .. وأنهماسوف يموتان مع رجالهما فى الصعيد .. أو يلتزمون جميعاً الطاعة أو يرسلون أموال هذا الجزء من البلاد إلى السلطان .. كان « إسماعيل باشا » يرمى إلى الموازنة .. بين احتفال أهل مصر بمولد الحسين وعودة الشيخ « السادات » إلى منزله القديم وتأكيد قبضةالسلطان ..!!

ومن وراء مشربيات قصر الجماهير كانت امرأة .. فى قمة نضجها الأنثوى .. تغالب دموع القهر وتكتم فى ضلوعها عوامل العجز .. على محياها كبرياء أصيل .. عميق الجذور .. لا تريد لأجزائها أن تنتصر عليها .. شامخة فوق هزيمتها والشموخ عذاب .. رافعة رأسها والرأس المرفوعة قد يدفعها صاحبها ثمناً للحظة ارتفاع ..!

إنها ليست امرأة عادية .. فهى ذات كيان خاص .. « المحروسة » كلها تعرفها .. تهتف باسمها .. تتغنى بمروءتها .. تتحدث عن شجاعتها .. معبودة الرجال .. والمثل الأعلى لكل امرأة .. فكل سيدة تتمنى أن تعيش للحظة واحدة .. « نفيسة المرادية » .

من أجل ذلك كان القهر الذى يسحقها فظيعاً .. فالقهر عادة يجيء بقدر الإمكانات التى يفقدها المقهور .. وكانت إمكانات « نفيسة هانم » غير محدودة .. إن « مراد بك » الذى كان مطلق اليد فى « المحروسة » .. كانت هى أيضاً مطلقة اليدين .. تفعل كل ما تريده أن تفعله .. إذا استعصى عليها أى أمر .. ابتسمت له ابتسامة ذات معنى .. فلا يتردد فى تنفيذه .. فإذا كان مستحيلاً ذرفت دمعة .. فإذا كان خطيراً يتعلق بحياة إنسان سلباً أو إيجاباً .. احتجبت فى جناحها يوماً .. بعدها يصنع « مراد بك » ما تريده منه .. حتى لو كان مطلبها أن يغادر منصة الحكم ..!

فجأة وجدت نفسها بلا سلطات .. لقد هرب « مراد بك » مع « إبراهيم بك » بعد أن أحسا .. أن « إسماعيل بك » سحب البساط من تحت أقدامهما .. وأن أى ليلة يقضيانها فى « المحروسة » .. قد تؤدى بحياتهما .. بنفس الهدوء الذى كان يتحرك به « إسماعيل بك » ..تحركا جمعا المماليك .. اتصلا بالجاويشية المخلصين لهما .. اتفقا مع بعض الوجاقلية .. على أن يخرجا ليلاً إلى « البساتين » .. ثم يعبرا النيل إلى الشاطيء الغربى .. وبعدها تتوجه القافلة كلها إلى الصعيد .

وفوجئت القاهرة بأن الجبارين اختفيا فجأة .. وقد ترك كلاهما قصوره وحريمه والكثير من أمواله ومتاعه .. فقد كان كله يهون أمام حريتهما .. وهما على ثقة أنه لن يجرؤ أحد على الانتقام من حريمهم .. لأنهم سوف يعودون غداً أو بعد غد .

لكن الذى حدث هو أن « إسماعيل بك » انتهز الفرصة واعتدى اعتداء منكراً على القصور والحريم .. ولولا أن « الشيخ السادات »والعلماء تصدوا له ، ووقفوا فى وجهه لعبث بالحريمات ، والقصور أكثر وأكثر .. فهو لم يكتف بما نهبه من المتعة وأموال وتحف من القصور .. بل أمر ببيع النساء والأولاد فى المزاد وجنت « نفيسة هانم المرادية » والأجلاف يقتحمون عليها القصر .. لولا أنها أسرعت تشترى نفسها برشوة كبيرة لكبير الجند ..

وليس هذا فحسب .. بل إن على عاتقها أيضاً .. أن تدبر أمور أكثر من ألف وخمسمائةنفس ما بين سيدة ، ومحظية وجارية من جوارى المماليك الذين خرجوا مع زوجها وشريكه .. وقد لجأن إلى بيتها وحملنها المسئولية عنهن .. فهى وحدها التى اعتادت الاتصال بالرجال والكلام معهم وهى وحدها المسموعة الكلمة عند الرجال .. الذين يعرفونها والذين لا يعرفونها .

واستطاعت أن تخدع كل العيون التى تراقبها .. ورتبت بريداً أسبوعياً يروح ويجىء بينها وبين المماليك الذين استحوذوا على الوجه القبلى وأعلنوا أنهم أصحابه وأنهم سوف يزحفون على « القاهرة » .. إذا لم تستجب القاهرة لمطالبهم .

ومن هذا البريد جاءت مسئوليتها وعظمت وكبرت مشكلتها مع السلطات الجديدة .. فلو أن السلطات وضعت يدها على حقائق هذا البريد .. لوضعت حبل المشنقة فى عنقها كما حدث للكثيرين .. واتهموا بالاتصال بالمماليك القبليين ووجدت لديهم « مكاتبات » اعتبرتها السلطة اتصالات بجهات أجنبية فقطعت أعناقهم وسلخت وجوههم .. ثم علقت رؤوسهم على الأعواد فى الميادين .

لكن « نفيسة هانم المرادية » تجازف بحياتها وتكاد تقيم جهازاً متكاملاً يعمل على نقل الرسائل بينها وبين الأمراء المغضوب عليهم .. ولجأت إليها فتاة لم تتجاوز السابعة عشرة .. أحست عند لقائها بأنها ترى شيئاً غير عادى .. فماذا دفع بتلك الفتاة الخضراء إلى معترك هذه المعاناة ؟ وما كادت تلتقى بها حتى هوت الفتاة على يديها فأوسعتهما تقبيلاً ومالت تريد تقبيل قدميها .. لكن « نفيسة هانم » وقد هالها أن هذه الفتاة التى يؤكد مظهرها أنها ليست فى حاجة إلى معونة مادية حاولت أن تنحنى لأن تمنعها من تقبيل قدميها .. فلما أمسكت بها وقربت وجهها من ملامحها التى امتلأت بالدموع .. قرأت فى عينيها رجاء لا يرفضه كريم بين جنبيه قلب ..! احتضنتها لكى تهدىء من روعها .. ربتت على كتفيها .. ابتسمت وبذلت لها من نفسها الكثير .. وحاولت صادقة أن تزرع فى أنحائها الطمأنينة وأن تبث فى أعماقها السكون .. فقد كان الفزع يستبد بالفتاة كمشلول تلتهم النيران من حوله كل شىء ..!

فلما سألتها حاجتها التى جاءت من أجلها .. لم تتكلم ، وإنما نقلت نظرها بين الجالسات من ذوى الحاجات وبينها .. فأدركت « نفيسة هانم » بذكائها أنها تريدها على انفراد وجذبتها من يدها واندفعت بها إلى غرفة أغلقتها عليهما .. وانطلقت الفتاة فى البكاء العنيف الذى عاق قدرتها عن الكلام .. ومازالت بها حتى هدأت .. ثم بدأت تروى ..

« نبوية » مصرية من بنات البلد .. والدها سعيد أبو الغيط .. صاحب حانوت « الطرشى » الذى يقع على ناصية حارة القنطرة عند الخليج والجسر الموصل إلى حارة « قولة » وأرض باب اللوق .. وكانت تقيم عند خالتها فى « الداودية » حينما قامت بينها وبين المملوك « مصباح » أحد مماليك « مراد بك » الصغار علاقة حب ، وكان على وشك أن يخطبها ويتزوجها .. لولا هذه الكارثة .. التى اضطرته أن يفر مع « مراد بك » ولقد كان فى وسعها أن تنتظره السنوات الطوال ، لولا أنه تقدم لها من يريد الزواج منها ، وهى لا تستطيع أن ترفض ولا أن تقول لوالدها إذا رفضت سبب الرفض الحقيقى .. ومن أجل

ذلك قررت أن تهرب إليه حيث يكون .. حتى لو كلفتها المغامرة عمرها ..

وهى تعرف كما يعرف الجميع كرم أخلاق « نفيسة هانم المرادية »وسمعت من الجميع عن شجاعتها ، وأحست أنه لا يستطيع أن يقف بجوارها أحد سواها .. فهل يمكن أن ترسلها إليه فى الوجه القبلى .

استمعت المرأة الكبيرة القلب الكسيرته فى نفس الوقت ورغم ذلك التفتت إلى المرأة الصغيرة فقالت لها .. إن الخطر لا يجب أن ينسيها أنها أنثى وإن للأنثى الكبرياء والدلال على الرجل وإنه هو الذى عليه أن يخاطر ويجىء لكى يأخذها .. فإما أن ينجح وإما أن يهلك دون ذلك .. فتحفظ له ذكراه ، وتبقى حتى آخر العمر تروى للأجيال أنه أحب فعف ثم مات وهو يحاول أن يؤكد حبه بالزواج فمات شهيداً ..!

وغاصت دموع الفتاة وهى تستمع إلى كلمات المرادية .. إنها كما سمعت عنها .. منتصبة الرأس حينما تنحنى كل الرؤوس .. هادئة حتى والقلوب تنخلع من حولها ..! وقالت الفتاة .. إن بيت والدها قد يضيق بها .. وهى لو ظلت هناك لزفوها إلى من جاء يخطبها دون أن تملك حق المعارضة وقطعت عليها المرادية الحديث .. مؤكدة أن بيتها منذ اللحظة تحت أمرها وأنها لو لجأت إليها ، لما استطاعت أى يد أن تمتد إليها ..!

وطمأنتها إلى أنها سوف تكتب إلى « مصباح » .. فإما أن يجىء مستهيناً بالأخطار والمخاطر وحينئذ يكون أهلاً لكل هذا الحب .. وإما أن يعتذر بالأخطار .. وعندئذ يكون لها الحق فى التعلق برجل يقتحم المخاطر من أجلها ..

خرجت الفتاة .. وهى تدعو من كل قلبها « للمرادية » وهى لا تعرف أن « المرادية » تجتاز أشد الأزمات التى تعرضت لها فى حياتها .. فلم يحدث أن ساءت ظروفها مرة إلى هذا الحد ..!

إنها وعدتها أن تكتب وأن ترسل بالبريد إلى « مصباح » .. ضمن البريد الذى استطاعت أن تقيمه بينها وبين الأمراء الفارين .. وكان ذلك يكبدها الشىء الكثير جداً من المال .. ففى كل منطقة يدفع رجالها للحراس والمراقبين لكى يغمضوا عيونهم ولكى يسمحوا لهم بالمسير ..

وقد كان بريدها يحمل كل خطابات ورسائل .. نساء وحريم المماليك والوجاقلية والكشاف الذين فروا مع « مراد بك » و « إبراهيم بك » وكانت تقوم وحدها بكل تكاليف البريد .. رافضة أن تساهم معها النسوة الأخريات ..!

لكنها اليوم اصطدمت بأمر خطير .. عاد رجالها الثلاثة الذين يقومون بالبريد وهم

يرتعدون ويقررون أن المعجزة فقط هى التى أنجتهم من أيدى زبانية « مصطفى الكاشف » .. الذى تولى أخيراً حكيمـدار منطقـة « طرة »..!! حمـل « الفرمان » من « إسماعيل بك » واحتل قلعة « طرة » .. وحشد رجاله من حوله وفرض قبضته على المسافرين .. فلا تكاد تمر سفينة ذاهبة إلى الصعيد أو قادمة منه .. إلا حاصرها وأمرها أن تجنح إلى البر .. وينقض عليها رجاله يفتشونها فيأخذ ما يرضيه ويفرض ما يرضيه وفى وسعه أن ينهبها كلها إذا راقت السلعة التى تحملها فى عينه وحجته فى ذلك أنها كانت للأمراء المتمردين الذين خرجوا على حكم السلطان .. وله أن يسجن الرجال فلا يطلقهم إلا إذا اشتروا أعناقهم .. وله أن يقتل منهم ما شاء بحجة أنهم قاوموا رجاله واعتدوا عليهم ..!

وطلبت منهم « نفيسة هانم » أن يتريثوا بضعة أيام .. ريثما تفحص الأمر بدورها وما لبثت أن اكتشفت أن مصطفى كاشف طرة .. أصبح يدير المسألة لحسابه .. وأنه أرسل إلى بيوت الأمراء الفارين .. بعض رجاله يسألهم .. أن الملابس والأقنعة والأمتعة والخطابات يمكن أن تصل عن طريقه إلى الصعيد وكل شىء له الثمن الذى قدره هو .. فإذا ضبط محاولات تتم من وراء ظهره .. استحقوا منه كل ما سوف ينزله بهم ..!

وفى أول الأمر خشوا أن يكون ذلك من ألاعيب « الكاشف » .. غير أن المغالاة فى طلب الرشوة أكدت لهم جدية الموضوع .. وعاد البريد إلى ما كان عليه ولكن بشكل أشبه بالسلب والنهب .. إلى حد جعل « نفيسة المرادية » ترسل خاتماً لها من الذهب المرصع بالماس وعلى جانبيه قطعتان من الياقوت الأحمر .. مع البريد كثمن يتقاضاه الكاشف مقابل إغضائه عن الذهاب والإياب لمرة واحدة ..!

وانقضت عدة دورات بريدية ولم تظهر « نبوية » فى منزل « نفيسة هانم » وذات صباح جاءتها وهى تبكى .. قالت لها إن هذا الخطيب القوى .. قد أنذر والدها بأن الزفاف سوف يكون الخميس القادم وأنه أرسل قدراً كبيراً من الذهب .. أدهشها أن تجد بينه « خاتمها » الذى رأته فى أصابعها فى الزيارة السابقة ..!!

من أجل ذلك جاءت لتريه إليها وتسألها ماذا حدث ..؟

وأرتج على « نفيسة هانم » .. لأول مرة تختلط الأمور فى ذهنها .. إلى حد تفقد فيه القدرة على التفكير .. قالت والكلمات تنزلق من شفتيها ..

ما اسم الرجل الذى يريدك زوجة له ..؟

قالت :

سمعت من أبى أن اسمه « مصطفى الكاشف »

أسقط فى يد « نفيسة هانم » .. تمنت لو أن «مصباحا » أرسل يعتذر عن المجيء .. ولم تجد بدأ من أن تنصحها بأن تستسلم لمصيرها .. فمثل هذا الإنسان لا يعارض .. فقد جمع فى يديه سلطة المال والمنصب .. وربتت على كتفها كأنها تودعها معلنة إليها .. أن عليها أن تواجه مصيرها بشجاعة تستمدها من جرأة اليأس .. الذى يرفضه التعلق بآمال تلفظ أنفاسها ..!

وليلة الزفاف أركبوها عربة تجرها الخيول وانطلقت بها إلى قصر « الكاشف » فى « طرة » .. حيث تسلمتها الجوارى ليعدوها للزفاف ، ودخلت غرفة الزفاف فإذا بها وحدها وأغلقت عليها الأبواب .. فإذا بها وجهاً لوجه مع رأس « مصباح » مغروسة فى « مزراق » .. غرس فى أرض الغرفة .. كانت العنق تبدو وكأنها قطعت منذ لحظة .. فكل ملامحه مازالت كما هى ..!

وأطلقت العروس صرخة .. خرج معها كل ما كان فى هيكلها من إنسانيات .. فقدت الأميرة بنت البلد النطق وما نطقت كلمة بعدها .. فقد ظلت مشدوهة مبهوتة .. تنظر إلى الرأس التى تحملق فيها ..!

أما العريس فلم يستمتع بانتقامه .. فقد هاجم الأمراء القادمون من الصعيد قصره فى نفس الليلة .. وهرب هو إلى « مصر العتيقة » .. ثم القلعة حيث لاذ بالباشا ..

وعاد « مراد بك وإبراهيم بك » وجلسا فى مشيخة المحروسة وبقى « مصطفى الكاشف » ولكن الخرساء « نبوية » ظلت قصتها على جدران القصر المهجور فى « طرة » .





الحب له أجنحة



الحب له أجنحة

*** * * فى أول الأمر سمع صوتها .. بين ضجيج « الغورية » ، مئات الأصوات ، وضجة « القيسارية » .. اخترقت سمعه نبرات أنثوية .. مرقت من أذنيه إلى نخاع عظامه .. كانت ضحكتها الصافية وحدها امرأة .. فالتفت من فوق فرسه .. ألقى ببصره داخل حانوت الصائغ .. كانت تقف مشغولة .. منهمكة فى فحص أنواع المشغولات ..**

ارتعد الصائغ من نظرته .. راعها ما قفز على وجه الرجل من اهتمام .. فاستدارت بكل جسدها نحو الشارع .. كان على فرسه فارها .. مطرز الملابس .. يبرز عنقه الرائع من جبته .. يرمى الناس بنظرات من عينين واسعتين .. فخورا تياها بوظيفة « الكاشف » .. أهل عليها بوجهه المغرق فى البياض ، والاحمرار . واللحية السوداء التى تحيط به ، والأنف الشامخ الذى يقف كسيف يلمع سناه .. واحتواها فى نظرة .. بسامة الملامح .. فاتنة قسماتها .. مصرية الجبين ، والعينين .. قنواء الأنف .. تكشف وقفتها عن أعضاء متنافسة .. فياضة بالرغبة .. فى عينها نافورة أنوثة .. رائعة فى بساطة .. وجميلة بلا استعلاء .. ولأقل من ثانية .. تلاقت نظراتهما .. فغلبها الحياء ، وهزمه الجمال .. وهتف الصائغ ، سيدى « حمزة الكاشف » !

وتوقف الحصان .. وأشار الفارس إشارة بأصبعه إلى الصائغ .. خرج على الفور ، وترك الذهب دون أن يلتفت إليه .. وأسرع يلبى الإشارة ، فوقف بجوار الحصان فى خشوع ، ورفع رأسه يتلقى الأمر .. ومال الفارس .. فهمس إليه جملة أو جملتين .. فعاد الصائغ .. يفرك يديه طربا ، ومضى الفارس ، وخلفه الجنود من أتباعه .. لكن الفتاة اضطرب ما بين صدرها .. أحست بالإلهام أن الأمر يتعلق بها ، وعاد الصائغ فأمر لها ولوالدتها بمقعدين .. وفى محاولته إخفاء عرضه أفصح عنه .. لمعت نظراته من عينيه الضيقتين المختفيتين .. تحت حاجبيه الغليظين ، وقال .. يمكنك أن تشترى ما تشائين .. فكل ما تريدانه سوف يدفع ثمنه « الكاشف » حمزة .

أرتج على المرأة ، وأيقنت الفتاة من إلهامها .. حدث تصادم فى عواطفها .. فشلت فى تحديد ما يجب أن يرتسم على ملامحها .. لا دهشة خالصة ، ولا فرحة خالصة ، ولا غضب خالص .. ونظرت المرأة إلى ابنتها ، ونظرت كلتاهما إلى الرجل ، وجمد كل شىء .. حتى الهواء الذى يسبح فى الحانوت .. ماذا حدث ..؟ وما هو الاسم

الذى يمكن أن يطلق عليه .. وذعر الرجل .. فهو يعرف أن زوجها والد الفتاة من كبار العطارين ، وهم من عملائه منذ عشرين عاما .. لكنه لا يعرف إذا كانت الفتاة مخطوبة أم لا ..؟ وتردد وهو يسأل إذا كانت « العروسة » مخطوبة ..؟ فردت المرأة بذهول .. لا .. لكن لا أنا ولا هى أصحاب الأمر .. أنت تعرف جيدا غيرة الشيخ « حسن العطار » ..!!

☆ ☆ ☆

وعادت المرأة وابنتها ، وهما ترتجفان ، ولم تشتريا شيئا ، وحذرا الصائغ ألا يفتح فمه ..!! لكن الشيخ « حسن العطار » .. عاد من حانوته بعد صلاة العشاء ، وهو منشرح الصدر .. يداعب زوجته على غير عادته ، وحينما أقبلت تقول له إنها « جهزت العشاء » .. قال لها لكنى أريدك قبل العشاء .. لدى ما أقوله لك فتفرحين .. فإما أن تأكلى كثيرا أو تأكلى قليلاً ، ومضى إلى غرفته فتبعته إلى هناك فلما انفرد بها قال إن « حمزة الكاشف » جاء وخطب « عزيزة » .. وقد أعطاه الموافقة .. ألا يفرحها أن يكون زوج ابنتها « كاشف » الخط كله ..؟! أحنت المرأة رأسها ، وهى تدعو له ، وتؤكد أن الأمر بيد الله ويده ، وأنها سوف تجىء إليه « بعزيزة » .. لكى يقول لها الخبر بنفسه ، ولكى تقبل يده .. اعترافا بكل أفضاله ، ونعمته .. واندفعت وهى تخفى فرحتها ، وتحمد الله .. أنه لم يعرف أين ، ولا متى رأى الكاشف « عزيزة » ..!

☆ ☆ ☆

كل الاستعدادات كانت تجرى لتنتقل العروس إلى بيت الفارس .. كل ما حولها يفرح بها .. إلا هى لا تعرف كيف تفرح بنفسها .. هذا الفارس سوف يصبح لها .. اهتزت أعماقها بنوع من الغرور .. لابد أنها جميلة جدا .. ليس فى « القاهرة » من هى أجمل منها .. ولو أنها غير جذابة .. لما اختارها « حمزة الكاشف » دون البنات جميعا .. وفى الغد سوف تنهال عليها الهدايا .. فالناس جميعا يهدون « عروس » الكاشف .. تقربا له ، وتهيبا من مركزه .. وغدا يقفز والدها ليصبح شيخ العطارين !

لكن ليس كل هذا ما يشغلها .. إنها تقاسى وتتمنى حقا أن تنسى .. فى القلب جراح أحدثها هذا الحادث .. لا أحد يدرى أن الخطبة .. قطعت الطريق على سنوات .. من الحب العذرى .. كانت بينها وبين « محمود » .. الشاب الذى يعمل عند والدها .. طالما تحدثت إليه ، وتحدث إليها .. عندما كانت صغيرة .. فلما كبرت لم يعد

يراها إلا خلسة .. لم يعد والدها يرسله إلى البيت .. آخر مرة رأها .. كانت فى فرح لقريبة لها .. مدعوة مع أمها . وانسلت من جانب والدتها لتراه .. قالت له بعينيها .. متى يا محمود ..؟ وقال لها بعينيه إن الفارق بينهما كبير .. إنه يحبها فقط كما يحب نجوم السماء .. على يقين من أنها لن تهبط إليه ، ولن يصعد إليها .. وقالت .. لكنى أهبط إليك يا محمود ..! فقال .. سلمت من الهبوط ، وأبقاك الله فى علاك .. أنت سيدتى « يا عزيزة » ، وسوف تظلين سيدتى إلى الأبد .. قالت .. لكنى أحب الجلوس إليك .. أحب السفر فى عينيك .. أود لو أنى بقيت العمر بين يديك .. فهل أنت أيضا تريدنى معك ..؟ وهمس ومن حولهما الصخب .. أنا أحبك بكل عمرى .. بكل شقائى .. بكل عذابى الماضى ، ويأسى الحاضر ، والقادم .. أنت غداً تتزوجين ، وتنسين ، وأنا أتوسل إليك أن تنسى .. أما أنا فمهمتى أن أعيش أذكرك ولا أنساك ..!

لم يحبها كما اعتاد الناس .. بعينيه .. ثم بقلبه .. ثم كان الهوى .. كلا .. فقد كبرا والحب معا .. أحبها بكل جوارحه .. امتص غرامها بالأعماق .. كأغصان تشرب من الساق .. ما شعر بالحب يغزوه .. فلما حيل بينه وبينها .. أضناه الحنين إلى رؤياها .. ومضى يستحضر طيفها .. يطلبه فى أماكن اللقاء .. يبحث عنه فى حناياه .. أخيرا أدرك أنه يسبح ضد العقل .. لو قال بحبه لكانت جريمته بشعة .. من قال إن حصاة ترقد فى السفح .. تتطلع يوما إلى نجم فى السماء ..؟ وتضاف خيانة سيده إلى جريمة حب .. فليكتم حبه فى ضلوعه وليخنق هذا الأمل المولود سفاحا .. وليحيا شقيا تحت ظلال اليأس ..!

☆ ☆ ☆

أخذوها إلى « العرس » المحتوم .. زفوها وهى مستسلمة .. لا يد لها فيما يحدث .. عشرات الصناديق ، وهى كصندوق بينها .. الليلة تعطى شبابها ، وكيانها ، وحياتها .. « لحمزة الكاشف » .. ومن ذا يليق بها سواه ..؟ لابد من نسيان « محمود » .. لا فائدة ترجى من ذكراه .. من الخير له ولها .. أن يموت الأمل راضيا ، وينتحر الرجاء وهو سعيد .. حماية لها من الفضيحة . ورحمة به من العذاب ..!

وأصبحت فإذا هى زوجة « الكاشف » .. وأحاطت بها الجوارى البيض والسود .. فى الحمام ، وبعد خروجها منه .. يتسابقن فى تزيينها لسيدهن .. ويطلقن بخور الصندل ويسكبن العطور ، ويوقدن الشموع فى نهار الصباحية .. وجلست كأميرة على كرسى مرتفع وسط « الحرملك » ، وبدأت وفود القادمات للتهنئة حاملات الهدايا ، وتسبق كل واحدة منهن الجارية الحبشية .. لتعلن اسم القادمة ووظيفة زوجها .. وقرب

صلاة الظهر .. اضطربن المهنئات .. علت أحاديثهن .. واقتحمت المكان أربع جاريات رائعات الحسن والملابس .. يحملن من الهدايا ما خف حمله ، وغلا ثمنه .. وصاحت الجارية الحبشية .. تهتف بنغم معين .. تدربت عليه .. أن « نفيسة هانم المرادية » قادمة .. وتطلعت المهنئات كلهن إلى الباب .. وكادت « عزيزة » تقفز من على مقعدها .. فطالما سمعت عن « المرادية » لكنها لم ترها .. إنها المرة الأولى .. وفوجئت « بحمزة » يدخل ، وهو يسبقها .. يهرول بين يديها ، وطلعت على « الحرملك » .. فأضاءت كأنها قطعة شمس .. تواضعت لأهل الأرض .. مشت فى تؤدة ووقار ، وبلا تيه أو دلال .. تحيى المهنئات بإيماءات من رأسها .. وانطلقت الزغاريد .. وزاد رأسها شموخا .. كانت « عزيزة » تراها تطول كل لحظة ، وهى تقترب .. فلما دنت منها .. مالت عليها فقبلتها فى جبينها ، وأمسكت هى بيدها تقبلها شكرا .. ثم التفتت تهنىء « حمزة الكاشف » ، وتطرى جمالها .. وأسرع بجيئها بمقعد بنفسه .. لكنها اعتذرت بمشغولياتها التى يعرفها جيدا .. فإن بعض أمراء القلعة .. سوف يزورونها بشأن المطلوبات التى فرضها « الباشا » على نساء المماليك الذين فروا إلى الصعيد .. مع « مراد بك وإبراهيم بك » .. فأقسم أن تشرب الشربات ، وجىء لها بكأس من ذهب .. على صينية من الفضة ، وأخذ هو الصينية من الجارية .. ليقدم الشربات بيديه .. تكريما لها .. !

☆ ☆ ☆

وخرج موكب « نفيسة المرادية » ، وأكل الحقد قلوب نساء « حمزة » الأخريات .. فإن « ابنة العطار » سوف تتيه عليهن فخرا .. بحضور « المرادية » لتهنئتها .. لكن ذلك المجد لم تسعد به .. فقد بلغها أن « محمود » اعتذر عن العمل عند والدها .. سقط صريع مرض كاد يقضى عليه .. فلما شفى اعتذر بأن صحته لم تعد تقوى على العمل .. وسوف يبحث عن عمل سهل لا يرهقه .. وسرعان ما تسابق إليه تجار « المنطقة » .. كلهم يريدونه .. لأمانته التى هى مضرب الأمثال .. واختار أن يعمل عند الصائغ .. لم يكن يطمع إلا أن يراها يوما ما .. والصائغ إما أن يذهب إليها ، وإما أن تجىء هى إلى الحانوت ، وفى الحالتين .. سوف يربح رؤيتها ، وهى لا تقدر لديه بمال ..!

وقال له « المعلم » أن يستعد .. سوف يذهبان إلى بيت فى الخط .. ليس صدفة أن يعمل عنده بالذات ، وليس صدفة أن يأخذه إلى بيت « حمزة الكاشف » .. كل شىء يقع فى ملكوت الله بمقدار .. وكاد يرفض .. لكن بماذا يعتذر ..؟ وأدخلهما خادم الحريم إلى أول « الحرملك » .. ثم عاد إلى مكانه .. وجلسا ينتظران « العروس » فقد كانت تريد بعض التعديلات فى هداياها الذهبية .. وطلعت « عزيزة » ووقعت عيناها على « محمود » .. وحدثت فى الجو أشياء .. لم يرها غيرهما .. عانقها بعينيه .. فعانقته ببصرها .. وألقت بنفسها عليه فى خيالها .. ثم تنبهت إلى أنها « هانم » ، وهما فى

خدمتها .. فأسلمت يدها إلى « المعلم » يحرك الغوايش ، ويقلب الخواتم ، ويستمع إلى ترجيهاتها وأخرج « محمود » العدد من كيس معه .. كما أمره « المعلم » .. وجلس يعمل ، وتفرغ هو مدعوا يبصره على مائدة جمالها الذى تضاعف .. وأصلح « المعلم » ما استطاع إصلاحه .. ثم استأذن فى أن يأخذ الباقى إلى الحانوت .. فإذا تم إصلاحه .. أرسله مع « محمود » .. وقامت « الهانم » فنادت إحدى الجاريات على خادم « الحرملك » .. فجاء ليقودهما إلى الخارج ..!!

واعتاد « محمود » أن يجيء ، وأرضت كليهما لعبة إصلاح المصوغات .. فرصة يمسك يديها ويقبلهما بعينيه ، ويدنيهما من قلبه ، وهى تدرك كل شيء ، ولا أحد يدرك ما هما فيه من حولهما .. لكن الجوارى فطن إلى الحب ..

كان « محمود » يتطلع بعينين ساهمتين ، وكانت هى تجيب على أسئلته بنظرات أعمق ، وأبعد ، وأكثر أحلاما .. ونقلن الخبر إلى الزوجات الأخريات .. فراقبن العاشقين أياما متتالية .. وجاءت فرصة للانتقام .. فسقن الخبر إلى « حمزة » فى شماتة .. فجن جنونه ، وجاء يسألها عن صحة الخبر ، وسيفه مشرع فى يده .. فصاحت فيه إنها الغيرة .. غيرة « الحيزبونات » ، ورأى أنه كان متسرعا .. لكنه قرر أن يؤدب الصائغ الشاب ..!

ما كاد يغادرها حتى أرسلت جارية تكن لها الود إلى « محمود » تحذره ، وتبلغه ما حدث .. فلما طلبه فلم يجده فى الحانوت .. أيقن من صحة الخبر ، وجرى لينتقم من « عزيزة » فى البيت يريد أن يفضحها ، ويطلقها .. لكنها كانت اختفت .. هداها تفكيرها .. أن تهرب إلى حيث لا يستطيع أحد أن ينال منها .. وقادتها جاريتها إلى قصر « نفيسة المرادية » فلاذت بها ، وقالت لها قصة حبها ، وكيد ضرائرها لها .. وطمأنتها « المرادية » وأرسلت إلى «حمزة » الكاشف .. فجاءها .. فهدأت خواطره ، ومازالت به حتى طلقها .. وبعثت إلى « محمود » أن يختفى من « القاهرة » نهائيا .. حتى تمضى أيام العدة .. ثم يقصد قصرها مباشرة وهى سوف تزوجهما إن بقيت على قيد الحياة حتى يومها ..!!

☆ ☆ ☆

وأقبل « حسن العطار » غاضبا .. فتلقته « المرادية » ومازالت به .. حتى أقنعته أن وجودها هنا خير لها وله .. فلا يعلم جيرانهم ما حدث ، و « حمزة » نفسه أحرص الناس على عدم إعلان فشله .. ومضت أيام العدة .. وأرسلت « عزيزة » تبحث عن « محمود » فى كل مكان .. لكنه لم يظهر ، ولم تعثر له على أثر .. وقالت بعض الأقاويل .. إن « حمزة » عهد إلى بعض رجاله فأخذوه .. وقتلوه ، وألقوه فى النيل ..

وأعلنت الحداد .. وهدتها الصدمة .. وأحست أنها خسرت والدها ، وخسرت بيتها ، وانحسر عنها عقلها .. وبدأت رحلتها مع الجنون .. وازدادت « المرادية » إشفاقا عليها .. ملأتها الكآبة ، ولم تعد تتكلم .. كانت تنظر فقط نظرات شاردة .. فلا تطلب طعاما ولا شرابا .. إلا إذا قدموه لها ..!

بعد عام كامل .. دخلت جارية تقول « للمرادية » على الباب رجل اسمه « محمود » يريد مقابلتها .. كان آخر ما يخطر ببالها .. فلما أدخلته .. سألته من هو ؟ فقال لها .. إنه يريد « عزيزة » .. لم تصدق المرأة .. وأرسلت إلى المذهولة .. فجيء بها .. فلما نظرت إليه لم تحرك ساكنا .. أما هو فقد أمسك بيديها .. يبللهما بدموعه ، ويصيح فيها .. أنا محمود .. محمود يا عزيزة .. وشيئا فشيئا بدأت تعود من رحلتها .. تبدلت نظراتها .. شدت من قامتها .. عادت إليها بعض ملامحها صرخت .. « محمود » ، وراحت تبكى ..!!

وقال « لنفيسة المرادية » إنه رأى أن يجزيها بخدمة خاصة .. كما أسدت إليهما معروفها .. فقد أخذه رجال « الكاشف » ليقتلوه فرشاهم بكمية من الذهب .. فتركوه فى النيل .. والتقطته مركب مسافرة إلى الصعيد ، وهناك التقى « بمراد بك » ، وجاءها منه برسالة .. وأطلقت الزغاريد ، وأرسلت فى طلب « القاضى » وزفت « عزيزة » إلى « محمود » ..!!



الحريم أيام المماليك



قوت القلوب

قــوت القلــوب

• • • لم يجد حوله سوى ظلمة .. ليل لا آخر له .. يخيم على الجميع .. حتى بعد طلوع الشمس .. كأن ظلمة « مصر » كلها تختفي داخله وحده .. حينما تطلع الشمس على الجميع .. أوشك أن ينهار وأن يفقد عقله .. فيهيم على وجهه .. مخلفا وراءه كل شيء .. يترك كل هذا العز والأبهة فيمضى .. هربا من الحيرة التى تأكله لحظة بعد لحظة ..

يريد اللجوء إلى شاطىء يجد فيه الأمن .. يأمن فيه على نفسه ، وأهله .. يمزقه الشوق إلى الاستقرار .. سنوات طويلة ، وهو يسكن الخيام ، وينام على ظهر جواده .. ذهابا وإيابا من « الجيزة » إلى الصعيد .. فى مواكب « شاهين بك » أستاذه ورب نعمته ، الذى يجرى هو الآخر فى ركاب « إبراهيم بك » لكن « شاهين بك » احتال على « محمد على باشا » حتى أقره على الفيوم كما كانت له أيام « إبراهيم بك » و « مراد بك » .. فلما عاد إليها وأرسى بها قواعده .. أرسل إلى « إبراهيم بك » وجاءه يسعى من الصعيد واجتمعا سويا .. فنادا فى الأمراء . والجنود ، والعربان الذين اتبعوهما .. إنهم فى طريقهم إلى إجلاء « محمد على باشا » عن « مصر » .. بعد أن ملكه المصريون أمرهم ففصل بينهم وبين المماليك المصرية أصحابه وخدع العلماء والأعيان .. ففرق بينهم ، وضرب بعضهم ببعض وأبعد « السيد عمر مكرم » الذى ألبسه أصحابه الحكم وكتب مع العلماء إلى السلطان ليوليه على « مصر » ..

لكن الجيوش القادمة منهكة من الصعيد .. عسكرت فى « الجيزة » و« دهشور » واسترخت أجسادهم وجاءت الرسل تحمل الأنباء من البر الشرقى .. لتؤكد أن الباشا لديه جيش من العساكر الأتراك والأرناؤوط وجهز من المدافع والمعدات مالا قبل لكل المماليك به وأن « محمد على » لم يكن بالغافل عن هذا الوجه من وجوه المقاومة .. فاستعد له بالعدة والعدد ، ولم ينس أن يرسل لهم « مصطفى الكاشف المورلى » ليستميل بعض الأمراء ، حتى يهد صمودهم ويفكك تماسكهم ووعد الذين يتخلفون عن « إبراهيم بك » أو « شاهين بك » من الأمراء وينضم إلى الباشا بالإنعام عليه بكل ما كان له فى « مصر » من ديار وأملاك عدا إنعامات جديدة ورواتب وملابس له ولرجاله وجنوده وجرايات تجرى عليه وعلى جواريه وعماله وعبيده ووضع ثلاثة من أمراء الألفية الذين كانوا تحت إمرة

« شاهين بك » أيديهم فى يد « مصطفى المورلى » وعاهدوه سرا وهم « نعمان بك » و« أمين بك » و « يحيى بك » وقد كانوا القوة الضاربة عند « شاهين بك » المهيمن على البر الغربى حتى « الفيوم » .

وأحس هو أن الأمراء الثلاثة يبحثون عنه لينضم إليهم .. لكنه ترك معسكره ولم يقل لرجاله إلى أين وجهته ودخل إلى خيام الحريم وقال للحرس ألا يخبروا أحداً أنه فى الداخل وألا يسمح لأحد بالدخول قبل خروجه .. حتى لو كانت سيدة من هوانم الباشوات أو من الجوارى أو من الخدم .. قال ذلك وأكـده للحرس .. لأنه لا يأمن حيل « محمد على » أو « شاهين بك » على حياته أو الأمراء المارقين الثلاثة ..!

واختار من خيام الحريم .. خيمة « قوت القلوب » فهى زوجته وأم ولده وموضع أسراره .. يرتاح إلى مشورتها ويجد عندها دائما مخرجا لكروبه .. لرجاحة عقلها .. ورقة إحساسها .. والحنان الذى يبدو فى عينيها .. وما كادت تقوم إليه وتحف به وهى تستقبله .. حتى ألقى بنفسه على السرير منهوك القوى .. فنظرت إليه النظرة الحانية التى يعشقها منها .. وقالت فى صوت يسيل رقة وعذوبة .. إنه ليس على ما يرام وإن فى بال الأمير ما يشغله .. فلماذا لا يلقى بأعبائه بين يديها .. فإما أن تحمل عنه بعضها وإما أن تجد له بمشورتها مخرجا وقد اعتادت مشاكله ، واعتاد تلقى الحلول منها ..!

وخلعت عنه العمامة والسيف والعدة ، وألقت بنفسها بين أحضانه .. فأحس بالظلمة التى تغمره تتبدد والأنس يعود إليه بعد الوحشة وراح يعترف لها بأنه غير قادر على الخيانة ويخشى أن ينالوه بالأذى إذا لم ينضم إليهم ولا يستطيع أن يهرب من ضميره إذا خان « شاهين بك » ..!

ودفعت « قوت القلوب » أصابعها فى شعر رأسه الغزير وراحت تصب فى أذنيه .. ما تريد وكانت تلك عادتها حينما تريد أن تروضه .. قالت له إن وعود الباشا كلها كاذبة وإن الرجل الذى غدر « بالسيد عمر مكرم » لن يتورع عن الغدر بأى مخلوق حتى لو كان ابنه ، وإذا كان الأمراء الثلاثة .. قد سولت لهم أنفسهم الخيانة والانضمام إليه وصدقوه لقاء نعمة يسبغها عليهم أياما .. ثم ينقلب عليهم فيحطمهم ويذهبون جزاء خيانتهم وغباوتهم .. فليكن هو الأمير الذى لا يخون .. حتى لو مات لا قدر الله .. مات وهو راض عن نفسه ..

كان فى حاجة إلى أن يسمع هذا الحوار الذى يدور بينه وبين نفسه من « قوت القلوب » .. منها هى بالذات .. فهى روحه التى بين جنبيه وهى نفسه التى يتنفس بها وهى ضميره الذى يفكر به .. ونفض همومه مع حيرته .. حينما اتخذ القرار .. فنام ..

وفى الصباح بدأت حركة غير عادية فى المعسكرات التى ترابط فى صحراء الأهرام ..

معسكر « إبراهيم بك » ومعسكر « شاهين بك » وسارت طلائع « إبراهيم بك » إلى معسكر « شاهين بك » وخرج « شاهين » لملاقاته واستقباله بما يليق به كحاكم مصر السابق وقائد العصيان فى الصعيد ضد « محمد على » وأستاذ كل الأمراء المماليك المصريين ..

وحينما هبط « إبراهيم بك » من على جواده . سار على قدميه وضح تقدم السن عليه .. وتلقاه « شاهين بك » بما يليق به كأستاذ ودخل معه خيمته .. وبدا « إبراهيم بك » فى محاولة جادة ليضيق شقة الخلاف بين « شاهين » وأمرائه المنشقين وأبدى رغبته فى أن يعطى المماليك الأمراء ما يريدون من أمواله الخاصة .. حتى لا يفروا إلى « محمد على » الذى يستدرجهم واحداً بعد الآخر .. لتنفك رابطتهم وليخرب تجمعهم وليعلن أنه قضى على المماليك والأمراء المصريين ولكن « شاهين » شرح له أن الأمراء الثلاثة تمردوا عليه ويطلبون منه أن يقاسمهم حكمه ما بين « الجيزة والفيوم » ويطالبونه بثلاثة أرباع ما جمعه من أموال وخيرات من هذه البلاد .. وأنه سوف يولى غيرهم إماراتهم ولا أمل فيهم فقد امتلأوا بإغراء « محمد على » .. فقد تأكد له أنهم استضافوا « مصطفى الكاشف المورلى » ثلاثة أيام وكان موفدا إليهم من « محمد على » وحاول الاجتماع بالأمراء المنشقين ولكنه فوجىء بأنهم جمعوا رجالهم وحريمهم وعبيدهم وعبروا النيل من عند « الصف » ثم ساروا إلى « بنى سويف » حيث تلقاهم عامل « محمد على » هناك وحدد لهم اليوم الذى يعودون فيه إلى « مصر » حيث كانت حاشية الباشا فى استقبالهم وذهبوا إلى القلعة فتلقاهم الباشا وخلع عليهم الخلع والهبات وأنعم عليهم بالدور الواسعة وخصص لهم الرواتب ولرجالهم وأجرى على عبيدهم وحريمهم الأرزاق والهدايا ..!

وقصمت تلك الضربة ظهر الأمراء المصريين .. فقد أعلن « محمد على » أن مقاومتهم انتهت وأن « إبراهيم بك وأمراءه ومراد بك وأمراءه » قد دالت دولتهم وأن على جميع الأهالى والعربان والكشاف وأبناء الناس والأعيان ألا يقدموا إليهم أية مساعدة وأن من يأويهم أو يساعدهم بالسلاح أو المال لا يلومن إلا .. نفسه .

ودخل الأمير على « قوت القلوب » يقول لها .. إن « مصر » خلت « لمحمد على » وإنه استقبل الأمراء المنشقين وأجزل لهم العطاء وإن « شاهين بك » قرر العودة إلى الفيوم « وإبراهيم بك » قرر العودة إلى الصعيد وإنه يخاف عاقبة البقاء فى معسكر « شاهين بك » ..!!

لكن « قوت القلوب » هدأت من خاطره وأكدت له أن « محمد على » سوف ينقض على الأمراء المنشقين بعد أن يطمئن إلى أنه جردهم من قوتهم .. سوف يسلط عليهم تلاميذهم ليقتلوهم كعادته .. فهو لابد أن يشترى تلاميذهم ويتخلص منهم .. أما هو فخير له أن يظل مع « شاهين بك » إلى النهاية .

ونادى المنادى فى المعسكر أن التحرك إلى الفيوم سوف يبدأ مع أول ضوء لنهار الغد وظل العمال طوال الليل يتجهزون على أضواء المشاعل .

ومع أول ضوء .. كانت القافلة تسير وفى مقدمتها كوكبة من الفرسان يقودهم الأمير زوج « قوت القلوب » ويتوسطهم الأمير « شاهين بك » وكان واضحا أن الهزيمة والقهر وسموم الهموم تطحن الرجل الذى خانه ثلاثة من أعز رجاله .. وما كاد يحل عصر ذلك اليوم ولم تكن القافلة قد وصلت إلى منتصف الطريق .. حتى ترنح « شاهين بك » على جواده وتأوه يطلب من يساعده .. لكن الأمير لم يدركه .. فسقط من على جواده وجىء بالطبيب وسرى الذعر والرعب فى القافلة وأفردت للمريض الكبير الذى فاجأه المرض خيمة وبقى الطبيب معه .. لا يدخل عليهما سوى الأمير ..!

وتوقفت القافلة عن المسير والكلام والطعام .. فقد سبق الحزن بالكارثة وقوعها .. ولم يستطع الجميع كظم الهواجس التى اجتاحتهم .. فالتفوا حول الخيمة رغم الأوامر المشددة بعدم الاقتراب منها وعلا نحيب النساء وأجهش الرجال .. « شاهين بك شاهين بك » .. وخرج الطبيب .. ثم دخل .. ثم خرج .. ثم وقف أمام العلم الذى ينصب أمام خيمة القائد .. فنزعه من مكانه وقبله .. فأطلق الرجال والنساء الصراخ عاليا وطوى الطبيب العلم فوضح للجميع أن « شاهين » انتهى ..!

وقفز الأمير « يوسف » فتقدم إلى الطبيب ورفع العلم وقبله ووضعه على سيفه .. وأحنى رأسه له .. فبايعه الجميع بالهتاف .. وأقسم أنه لن يخون « شاهين » ولن ينضم إلى « محمد على » وأنه سوف يحكم « الفيوم » . وكانت « قوت القلوب » ترقب كل ذلك وكأنها تقول له ألم أقل لك ..؟!



الحريم أيام المماليك



الهوى والأغا



الهـــوى والأغـــــا

*** * * فجأة قامت القيامة .. رأى بعينيه الحساب والميزان .. كل شيء يتوعده .. يرسل إليه نظرة شامتة ساخرة . ليست عيون الآدميين فقط .. بل الحيوانات أيضا .. خيوله يحس أنها تحتقره .. هبط يريد أن يركب حصانا يهرب عليه .. أجفلت منه الخيول .. الخدام . السياس .. تركوه .. فقد السيطرة على كل شيء ، وأى شيء ..**

حتى أعضاء جسده .. يداه ترتعشان .. ساقاه تصطكان .. غادرته قدرته على التفكير .. تخلت عنه قدراته التى اشتهر بها فى الخبث ، واللؤم ، والجرأة ..! عاد الذل القديم يقتحمه ساخرا منه .. زالت دولتك « يا عبد العال »..!

الفرنسيس ينسحبون .. وجنود الأمراء تدخل « القاهرة » من كل باب .. وأبناء البلد .. ينظرون فى شماتة ، ويسخرون من طوابير الدواب المتقاطرة .. التى تحمل أمتعة الفرنسيين ، وهم يغادرون « القلعة » .. فى طريقهم إلى خارج « مصر » .. وقد أذاعوا عصر اليوم .. أن من يتعرض لهم أو لمن يريد الخروج معهم من المصريين والأجانب الذين تعاونوا معهم .. فإنه يعرض نفسه للعقاب الشديد .. الذى قد يصل إلى حد رمى العنق ..!

وهو كان من الذين تعاونوا مع الفرنسيين .. لقد كان آخر « أغا ومحتسبا » صدر له فرمان فرنسى .. بعد أن رفض الكل التعاون معهم .. وقفز « عبد العال » إلى منصب أغا القاهرة ومحتسبها .. فأفزع الجميع .. وكان يخرج فى الموكب ، والجنود تجرى من خلفه وأمامه .. وأهل الخط على الجانبين .. يلعنونه فى قلوبهم . ويصفقون له بأيديهم .. ويعجبون من هؤلاء الغزاة .. الذين لا يتعاملون إلا مع أمثال « عبد العال » ..! كانت أحيانا تملأ عيونهم الدموع من الذل ، وأحيانا تملأ عيونهم الدموع ضحكا .. وهم يرون الأمير « عبد العال » .. الذى شاهدوه وهو يعمل عند تجار « الحمزاوى » .. حمالا .. يحمل البضائع على ظهره بدلا من الدواب .. مقابل أرغفة يأكلها وخرقة تستر جسده .. تدور الأيام دورتها .. فإذا به حاكم القاهرة الحقيقى .. يطارد الناس فى مساكنهم .. لكى يجمع الغرامات ، والمفروضات للفرنسيين ، ومن لا يدفع يجلد ، ويسجن ، وتنهب قصوره ، ويباع متاعه ، بأمر « عبد العال » ..!

أشفق عليه .. « نصر الله المترجم » .. بعد أن حمل له بعض المتاع إلى منزله .. وألح على زوجته يحرضها .. أن تتشفع له عند المترجم « الخواجة نصر الله » .. لكى يجد له

عملا .. وكان أن قدمه « الخواجا » للأغا « مصطفى » .. فجعله من جنوده .. ثم قربه لنشاطه في التجسس على الآخرين .. وأسرع يترقى حتى صار وكيلا « للأغا » ، ومات الأغا ، « والمحتسب » في الطاعون الذى اجتاح البلاد آخر أيام الفرنسيين فى « مصر » .. فلم يجدوا من يتولى الأغوية ، « والاحتساب » غيره ، وبذلك جمع فى يديه سلطة الشرطة ، وسلطة فرض الضرائب على المبيعات .. وأسعارها .. وأصبح له موكب يسير فيه ككبار المماليك ، وخرج بعض التجار من « القاهرة » .. أقسموا ألا يعودوا إليها إلا بعد أن يجلو « عبد العال » عنها .. فقد كان من العار عليهم أن يقوموا عليهم .. هذا الذى كان يحمل أمتعتهم ، ويجرى وراء دوابهم التى يركبونها .. مقابل ملء بطنه بالطعام ..! رأوا فى ذلك مهانة لم يروها فى دخول الفرنسيين الأزهر ..!

الذين اقتربوا منه .. كانوا على شاكلته .. لم يقبل التعاون معه .. إلا من هم فقدوا كل القيم ، والمثل بلا مروءة أو نخوة يخشون بها الله أو يستحون من الناس !

استغل وكالته « للأغا » .. فاشترى قصرا ، وزينه وأحاطه بالأشجار .. وأطلق على نفسه اسم الأمير « عبد العال » .. كان ينادى به فى قصره .. واتخذ لنفسه مجلسا من الأراذل ، والأوباش ، الذين كانوا يحملون إليه أسرار البيوت .. فلا تصل هدية من الريف . ولا يكسب تاجر مكسبا إلا كان له فى ذلك نصيب .. وكان يلمح فى عيون الذى يتعاملون معه .. بعض الاحتقار الذى يغلب على الاحترام .. فيمعن فى لؤمه وخبثه .. مدركاً أن الذين يبدون له الاحترام .. يحتقرونه فى نفس الوقت ويدفعه ذلك إلى مزيد من التعسف فى تنفيذ الأوامر . واقتضاء الديون مضاعفة الثروة مرة ولحسابه ومرة لحساب الحاكم العسكرى « للقاهرة » ..!

وذات عصر ، وهو في صدر الوكالة .. يجلس بين حاشيته الصفوة المختارة .. من الضائعين ، والأوباش من أمثاله .. أقبلت ضجة ، وبرز بعض الجنود ، وهم يسوقون أمامهم حمارين عليهما أمتعة ، وامرأة فى منتصف العمر .. يكشف خمارها الأبيض عن جمالها المتحدى .. وملامحها التى تؤكد انتماءها إلى الغجر .. لكن كساءها كان ينبىء عن أنها من طبقة الأميرات .. وأدى أحد الجنود التحية ، وقال له إنهم ضبطوها تغادر بيت الخواجا « نقولا » وهى تسوق الحمارين ، وقد وضعت فوقهما كل ما غلا ثمنه ، وخف حمله ..!

« والخواجا نقولا » .. هو صانع أسطول « مراد بك » .. الذى منحه كل شىء ، وأباح له ركوب الخيل ، واقتناء الجوارى ، وقد وشى به بعضهم إلى الفرنسيين بعد أن هرب « مراد بك » إلى الصعيد .. وألقوا القبض عليه ، وصادروا أمواله لكن هذه السيدة .. ضبطت وهى تهرب هذه الأموال .. وقد رفضت أن تفصح لهم عن شخصيتها ..!

تأملها « عبد العال » طويلا .. وأحس أنه ليست المرة الأولى التى يراها فيها .. وحاول أن يتذكر .. لكنه فشل .. وسألها عن حقيقة التهمة المنسوبة إليها .. لكنها قالت فى فصاحة .. إنها تفضل لو أن الأمير الوكيل تكرم عليها ، واستمع منها على انفراد .. فإن لديها ما يهمه .. فقام من مجلسه ، وانتحى بها فى « المقعد » الداخلى .. وتخففت عن أرديتها ، وخلعت خمارها .. فقال لها على الفور .. إنه رأها قبل ذلك .. فهل تذكر هى متى كان ذلك ..؟ وابتسمت المرأة ، وقالت له .. إنها فى عجب من ضعف ذاكرته .. وتسلل الصوت إلى ذاكرته .. فأحيا مواتها .. وعادت تقول :

هل نسيت « هدى » « هدى » .. يا عبد العال .. « بنت الحمزاوى » ..!

وصاح « عبد العال » على عادة الحرافيش .. وقال :

ــ تذكرتك : « هدى » بنت أم الفوال : أمك بتاعة الحمص ! تذكرها ، تذكرته .. قالت له إنها خدمت فى بيت أحد التجار .. ثم تزوجته .. لكنه مات .. فطردها أولاده ، وألقت بها الأيام فى طريق « نقولا » فأخذها إلى قصره .. ثم صارت محظيته ، ووشى الناس به إلى « مراد بك » .. أنه قد اتخذ محظية مصرية .. فهدده إن لم يطردها بالحبس . فعرض علىَّ الزواج فقبلت ، وأعلن « نقولا » إسلامه .. فلما ذهب « مراد بك » ودخل الفرنسيون .. رجع « نقولا » مرتدا .. فرأيت أن أغادره .. وقررت الهرب .. ولكن قبل ذلك ، وشيت به عند الفرنسيين .. فقد كان يراسل « مراد بك » .. وسلمت أحد الخدم رسالة جاءته من « مراد بك » ليقدمها للفرنسيين .. فأمروا بمصادرة قصره وحبسه لكنى حاولت أن أحصل على ما أعتقد أنه من حقى ..!

وخشيت أن أقول للجنود إننى « هدى » فيقتلونى .. فقد أهدر المشايخ دمى عندما تزوجته ..!! وإنهم لم يرغمونى على المجىء .. لأننى كنت أسوق الحمارين نحو قصرك أريد اللجوء إليك ..!

انتفض « عبد العال » يسألها عن معنى جملتها الأخيرة قائلا :

لماذا .. و « القاهرة » أمامك ؟

أفرغت على صوتها نبرة أنثوية ذات معنى ، وهى تقول :

- لم يكن أمامى إلا سيد الناس .. الأمير « عبد العال » .. وكيل الأغا .. الذى كان يتمنانى ، وأتمناه أيام الشباب .. ولا أظنه قد نسى ..؟

ياللمرأة اللئيمة والخبيثة .. بهذه البساطة .. تنكأ جراحه .. إنها عذبته فى صباه بالاحتقار أكثر مما عذبته بالصد والهجران كانت تسخر منه ، كانت تقول له دائما إنها ترفض أن تتزوج بغلا .. كل مؤهلاته قوة ثور ، وعقل حمار .. يحمل الأمتعة والبضاعة

للناس .. حقا كان يطاردها بنزق الصبا ، وطيش المراهقة .. وكانت دائما تصده بقسوة وتعيره بفقره .. مع أنها كانت تجلس مع أمها التى تبيع « الحمص » المسلوق للتجار ، ورواد « الحمزاوى » ..!

لاشك أنها كانت صاحبة أنوثة مبكرة .. أنوثة أجهضت نموها الأيدئ العابثة التى كانت تعبث بجسدها صغيرة .. تفجرت المرأة فيها مبكرة ، وقبل أن تكتمل أعضاء الأنوثة فيها .. فبرز نهداها ، وتكور جسدها وامتلأ نصفها الأسفل بحيوية دافقة .. زادت من فتنتها .. واليوم هى فى قمة النضج ، وقد جاءت تسعى إليه .. تلقى بقلبها وجسدها تحت قدميه .. لكن لماذا تذكرت الآن فقط ..؟

وخفق قلبه فى صدره كطائر يضرب بجناحيه .. لكنه لم يخرج عن وقاره ، وضبط نفسه أكثر مما يحتمل الموقف ، وقال لها :

– لا أظن أنه الحب ولا الهوى .. « ياهدى » ..؟ فقولى الحقيقة ؟

فسألت فى رقة ، وهى تقول فى كلمات تنسكب من فمها كعطر يسيل من قنينة .

– لقد شغلتك المناصب فلم يحرقك الهوى .. أما أنا فكنت .. ثم سكتت ، وقالت فى تأوه لا تجعلنى أعترف أكثر من ذلك .. فلى أنوثة نصفها حياء .. وبدلا من أن يلين هذا الصخر .. أغرق فى الضحك ، وتقدم نحوها يقول فى سخرية .

– أنا أعرف منك بنفسك .. أنت لا تحبين ، وأنا لا أعشق ..!

وأحست أنه صدمها بعبارته .. فهشم أحلامها ، وهى ليست كما حاولت أن تدعى .. وإذاً فلتكلمه باللغة التى يتقنها وتتقنها .. وقالت له فى لهجة أشد سخرية .

– معك حق .. لقد جئت إليك .. لأنه لم يعد فى « القاهرة » من هو أسفل منك .. ثم تمهلت وهى تقول :

– إلا أنا .. لهذا جئتك وسوف تقبلنى .. فالبيض الفاسد .. أنت تعرف الباقى .. أغرق فى الضحك جدا استلقى على قفاه . وقام إليها فأخذها بين أحضانه ، وخرج إلى المجلس .. فصرف الناس . وأمر الجنود بأن يسوقوا الحمارين إلى الإسطبل ، وأعلن بعد أيام أنه سيعرس بها .. !

لم تكن حلمه القديم فقط .. بل كانت هى المرأة الوحيدة التى يمكن أن تكون زوجته .. فرغم صعوده سلم المجتمع .. إلا أن الناس حاصروه .. فقد استطاع أن يشترى عشرات الجوارى ، واقتنى المحظيات .. لكنه عندما أراد أن يتزوج .. اعتذر له الجميع ..

كان ماضيه المنحط ، وحاضره القذر فى معاونة الفرنسيس . يقفان أمامه عند العائلات فيعتذرون له في أدب خوفا من بطشه .. وكان ذلك يجعله يتمزق ، ويشعر بالاحتقار لنفسه .. من أجل ذلك رحب « بهدى » ، والاقتران بها .. فقد جاءته فى الوقت المناسب ..!

هو رجل منبوذ .. لأنه حصل على احتقار كل المصريين .. وهى أشد نبذا .. بل هى امرأة هدر دمها ، وحلت عليها اللعنات من كل المسلمين .. وليس أليق بالرجل المنبوذ من المرأة المهدرة الدم .. لكنه هو وهى على قمة الناس .. فقد تصاعدت به الوظائف .. لا سيما بعد أن مات « الأغا » وتولى هو ، وأصبح له ركب تهتف به الجماهير من على الجانبين ..!

لكن الدوامة انتهت .. أسرعت به أيامه ، وأيام الفرنسيس نحو النهاية .. وها هو الآن يواجه الماضى كله .. يسد عليه طرق النجاة .. الفرنسيس يرحلون ، وقد اتفق مع « بليار » على أن يرحل معهم .. كل من تعاونوا مع الفرنسيس ضد الشعب ، ويخشون غضبة الناس .. يمكنهم أن يرحلوا مع الفرنسيس .. وقد اشترى قبعة وراح يجربها أمام المرآة .. إنه يشعر الآن .. كأنه يقف على ماء .. وإنه يغوص شيئا فشيئا .. وقد جمع كل أمواله على حمار ، وساقه مع حمير الفرنسيس .. وهو الآن يلقى النظرات الأخيرة على الجمادات التى شهدت مجده فى الأيام الأخيرة ..

دخلت عليه « هدى » .. أذهله أنها لم تجمع حاجياتها .. صاح فيها أن تسرع .. أن تتعجل الأمر فلم يعد أمامها من الوقت إلا القليل .. لكنها وقفت تجاهه حملقت فيه بعينين طالما عذبته رموشها .. قالت :

– لن أذهب معك .. لن أترك « مصر » ..!

صاح فيها :

ـــ لكنك ستموتين .. سوف يفتكون بك « يا هدى » ..

قالت فى ثقة :

ـــ حتى لو كان ذلك .. لكنهم لن يقتلونى .. لأننى لم أخنهم .. أنت فقط الذى خنتهم .. أما أنا فخنت نفسى فقط ..!

فوجىء « عبد العال » بالأمر الوحيد الذى لم يكن فى حسبانه .. كان دائما يقظا ذكيا كالثعلب .. لأول مرة فى حياته يفاجأ ، ولا يفاجىء الناس .. كان يعول على « هدى » كثيرا .. كان يرى فيها سندا له فى بلاد بره .. كان يعدها الوطن الخاص به يهرب بها إلى حيث يريد .. لكنها فجأة تتخلى عنه .. وتتركه وهو فى حالة ضعف لم تمر

به ، وهو يحمل البضائع على ظهره !! ومد يده يتحسس « البرنيطة » التى على رأسه .. وأحس أنه فى حاجة إلى الجلوس .. كأنه ضرب على أم رأسه وجلس يبحث عن كلمات يقولها ..

هدى .. رغم أني أعرف سفالتك .. إلا أنني لم أكن أتوقع أن تتخلى عنى ..! قالت بجدية لم يعهدها فيها :

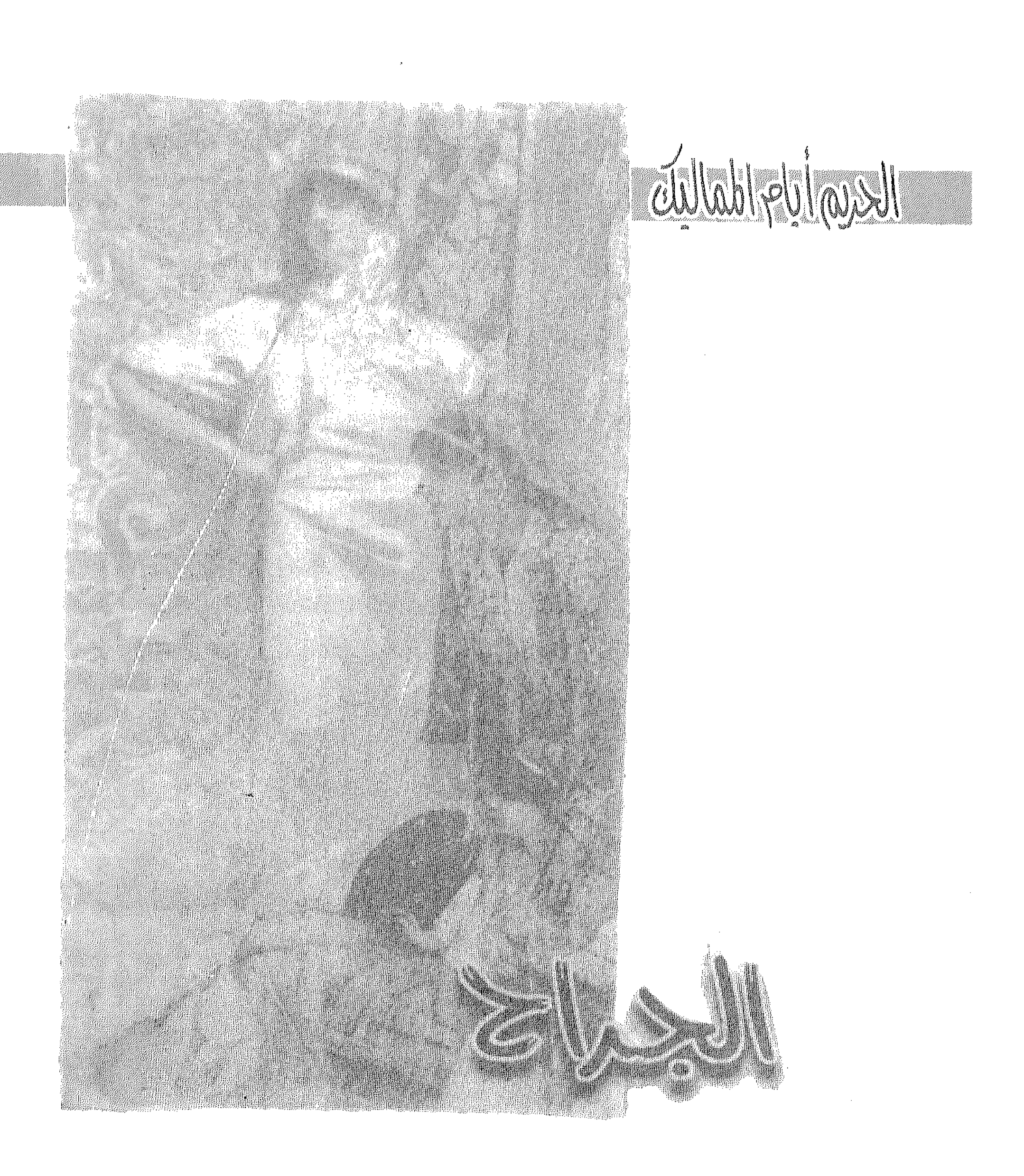
إنك ماض .. تغادر « مصر » .. وأنا لا أستطيع أن أهرب من « مصر » .. قد يقتلونني .. قد يحرقونني .. قد يمزقونني .. لكني فى النهاية سأدفن فى « مصر » ..! أيقن بالفشل .. إنها ليست لها جرأته .. ليست لها قدرته .. لكنه ماذا يفعل ..؟

لن يستطيع أن يتركها ، ولن يستطيع أن يمضى بدونها .. إن الأيام القادمة لن تكون إلا هوانا .. وماذا فى الغربة غير الهوان ..؟ و « هدى » كانت وطنه ، وكل أهله .. ولن تقتنع مهما حدثها .. مهما قال لها إنه فى حاجة إليها .. إذاً فليأخذ بعضه ويرحل .. ووقف يجر قدميه .. حاول أن يتماسك حتى لا ينهار أمام المرأة .. التى شدت قامتها كأنها تستقبل الموت فى شجاعة الشهداء .. ومضى خطوة .. ثم أخرى وأوشك أن يصل إلى الباب .. لكنه استدار .. وهم أن يفتح فمه ليتكلم .. لكن دموعه خنقته ، وأجهش بالبكاء المسموع .. وتحركت نحوه « هدى » فألقى بنفسه بين أحضانها ..!

رفع وجهه نحوها .. كانت ملامحه تتوسل .. كان كطفل ينزعونه من بين أحضان أمه .. لكنه كان ينزع نفسه .. وظلت « هدى » شامخة . لا تريد أن تضعف .. ومضى .. وصوت خطواته يصفع السكون .. خطوة . خطوة .. وحاول أن يصل إلى الإسطبل .. لكنه لم يجد السايس .. ولا الخدم ولا الخيول .. وغادر القصر فى صورته التى تنكر عليها .. ولحق بطوابير الفرنسيس .

أما « هدى » فقد بقيت فى القصر .. على استعداد لمواجهة الجماهير الثائرة إلا أن المظاهرات .. اندلعت فى الفجر تهاجم الخونة الذين هربوا مع الفرنسيس ، واشتعلت النار فى كل القصر .. وفشلت « هدى » فى النجاة ، وماتت كما أرادت ... احترقت تحت الركام الذى صار عليه القصر .. وحينما رفعوا الأنقاض وجدوا « المشاء الله » التى كانت تحملها فى عنقها .. وكان أشد ما أذهل الناس هو أنها لم تهرب مع « عبد العال » .. تساءلوا جميعا .. لماذا آثرت الموت على الهرب مع « عبد العال » ؟ .. لكنهم لم يجدوا جوابا .. وحملوها إلى مدافن الصدقة . !!




الحريم أيام المماليك



الجـــــــــــراح

الخوف هنا حاكم مطلق .. حاشيته الفزع .. والرعب له كل السلطات .. القلق يعربد .. يخلع الأفئدة .. والعدل صريع فى الطرقات .. القاهرة مذعورة .. يحنى القهر هامتها - بالكاد تستر عورتها .. تنعى ما فات .. وما هو واقع .. وما هو آت !!.

*** المنادى يخترق الغورية والناس يحيطون به وهو ينادى باللسانين العربى والتركى .. يعلن أن عسكر السلطان عادت مع « نصوح باشا » وأنهم سوف يطردون الفرنسيس وأن كبير الفرنسيس وفصيلة معه قضى عليهم بأسلحة الثوار فى « القرين » .. أما من بقى منهم فى القاهرة .. فلابد من أن يحمل كل فرد فى الشعب المصرى سلاحه .. حتى لو كان عصا من الجريد أو حجراً من الطوب ..

كان المنادى يرفع عقيرته بالنداء يثير الحماس .. والقاهرة قد امتلأت بأصناف شتى من الجنود .. ابن البلد ينظر فى دهشة .. إلى هؤلاء الغزاة الذين تطأ أقدامهم أرض مصر ويتنفسون هواءها ، ويأكلون خيراتها .. ثم يعيثون فيها فسادا يوما غزاة ويوما مدافعين .. وابن البلد ضائع بين ظالم قديم استباحها بمئات الأسباب وظالم قادم يزعم كذبا .. أنه جاء لرفع الظلم عن وادى النيل وبر مصر .. كلاهما المستعمر القديم والجديد باسم الدفاع عن عرض مصر وشرفها .. يريد من ابن البلد أن يحارب معه !!.

جراح مفتوحة فى قلوب أهل القاهرة .. ودموع مسفوحة فى لياليها المظلمة بعضها يفيض وبعضها يغيض ..!

فجنود الفرنسيس لم يقض عليها فى « القرين » .. بل هم الذين قضوا على الثوار من فلاحين « القرين » الذين انخدعوا بكلام « نصوح باشا » .. بعد أن تركهم وجاء فارا مع بقايا عسكره إلى القاهرة .. وكان أن وصلت طلائع الفرنسيس إلى القاهرة بعده بيومين .. ووقفت منهم طائفة خارج باب النصر الحسينية وأغراهم ما فى زاوية الدمرداش من خيرات فنهبوها .. ثم تسللوا إلى قبة الغورى فأتوا على كل ما فيها من تحف ومباخر وقناديل بعضها من الذهب وبعضها من الفضة وبعضها من النحاس الجيد الصنع ..

وأقبلت تجريدة من جنود الأرناؤوط .. كانت فى قرى الوجه البحرى تجمع الذخيرة وبعض الغلال والمواشى كتكاليف للحملة وحينما حاولت دخول القــاهرة لتعزيز موقف « نصوح باشا » .. تصدت لها بعض سرايا الفرنسيس التى كانت ترابط فوق التلال وبعد معركة استمرت عدة ساعات تبادلوا فيها الرصاص .. شقت التجريدة التى كان قوامها

ثلاثمائة جندى شوارع القاهرة .. وابتهج الناس لوصولهم .. رغم وجود الفرنسيس فى قلب حى الأزبكية .. وارتفعت معنويات الذين كانوا يرتعدون خوفا ورعبا وزحفوا بالنبابيت والأسلحة البيضاء على معسكرات الفرنسيين لا سيما مخزن ذخيرتهم الذى كان فى « بولاق » ..

وقاد الثورة هناك الحاج « مصطفى البشتيلى » .. الذى وقف يخطب فى الناس ويحرضهم على الفتك بالفرنسيس .. فقد جاء الباشا رسول خليفة المسلمين السلطان ووصلت عساكر الموحدين من الأرناؤوط الذين كانوا فى الريف وملأ الحماس الجماعى أهل « بولاق » وتحت الهستيريا الجماعية .. اتجهت الجموع إلى المعسكرات والمخازن الفرنسية .. وأحس الجنود الذين كانوا يحرسون المخازن بالخطر فأطلقوا النار من بنادقهم ولكن الجموع تكاثرت وفر الجنود الفرنسيون وتركوا المخازن وأغرى ذلك أبناء البلد بهم واستبد بهم الانتصار .. فقتلوا من تصدى لهم واستولوا على المخازن وأفرغوها من الغلال التى كان الفرنسيس قد جمعوها لتكون طعاما لهم ولحيواناتهم .. وبعدها أقاموا المتاريس هنا وهناك وحصنوا « بولاق » ووقفوا يحرسونها ..!!

وفى اليوم الثانى جاء كبير الفرنسيس ووزع جنوده فحاصر « القاهرة » حصارا شديدا .. ووصل هو إلى مركز قيادته فى الأزبكية .. واستطاع الحصار أن يمنع الخروج من « القاهرة » أو الدخول إليها ..!

وبدأ ضرب الأحياء الثائرة بالمدافع والقنابل وتساقطت القنابل على البيوت الآيلة للسقوط وأخذت فى سقوطها معها معظم البيوت الأخرى وعم الناس الزعب فهربوا من البيوت إلى الشوارع فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار .. وتوقف البيع والشراء وارتفعت أسعار الحبوب واختفى الطعام والشراب وزاد الطين بلة أن عساكر الأرناؤوط راحوا يتخاطفون الأكل من الأهالى ، ولم يستطع أحد الوصول إلى نهر النيل لجلب المياه .. أما الآبار فقد عسكر حولها الفرنسيس لاصطياد الأبرياء الذين يدفعهم عطش ذويهم إلى جلب الماء ..!

وخلال ذلك الجهاد والجهد الذى شق على المواطنين .. تصل الأخبار إلى بعض المجاهدين التى تقول إن « مصطفى أغا » المستحفظان سابقا يأوى فى داره بعض جنود الفرنساوية .. وجن جنون الأهالى وهجموا على داره التى كانت تقع فى « درب المحجر » وعثروا على العساكر الفرنساوية فقتلوا بعضهم وهرب بعضهم أما هو فقد أوثقوه بالحبال واقتادوه إلى « عثمان كتخدا » الدولة الذى كان من رجال « نصوح باشا » .. فسلمه للجنود الإنكشارية الذين خنقوه ليلا ودفنوه فى باب النصر .. ونصبوا مكانه « شاهين كاشفا » الذى كان يسكن الخرنفش ..!!

واستمر الضغط من جانب الفرنسيين .. كانت ظروفهم أحسن بكثير .. فقد ضيقوا الخناق على « القاهرة » ولم يعد فى الأحياء صفيحة ماء .. فهم يمنعون الوصول إلى نهر النيل ، واختفت الأقوات من الأسواق .. والقاهرة فى أحشائها الأطفال والنساء والمرضى والجرحى وهؤلاء من الصعب بل من المحال أن يصبروا على الجوع والظمأ ..

وانفلت العيار عند الجميع وتطاول الغوغاء على الرؤساء ، وضاقت الصدور وجاء « عثمان بك البرديسى » موفدا من قبل كبير الفرنساوية يطالب بالمفاوضة والصلح على شرطين .. أن تتوقف المقاومة وفى مقابل ذلك يخرج الباشا ومعه عساكره ومن يريد متابعته من المماليك المصرية وأن يعالج من كان مجروحا أو مريضا بواسطة الأطباء الفرنساوية وجلس « البرديسى بك » إلى المشايخ ثم أخذهم إلى صارى عسكر الفرنساوية ليستمعوا منه إلى الشروط التى يعرضها ..!

وعاد الشيوخ من عند صارى عسكر وشاع فى الناس أمر الصلح والمهادنة .. فقامت قيامة الغوغاء وشتموا المشايخ وقالوا عنهم كلاما كثيرا واتهموهم بأنهم قبضوا ثمن ذلك الصلح ذهبا .. فلم يكن فيهم من يدرك عاقبة الأمور ولا نهاية ذلك الحصار ولا يشعر بمن يعانون ويتألمون .. لاسيما وبعض العامة كانوا ينتفعون من استمرار الحصار .. لكن العقل تغلب وحاول أهل الرأى البدء فى الصلح .. لكن الأخبار جاءت من « بولاق » تقول إن البولاقية رفضوا عرض الصلح عدة مرات وفى آخر مرة ذهب إليهم ضابط فرنسى يركب جوادا وبيده ورقة وهو ينادى . أمان . أمان . سوا .. سوا .·. لكنهم هجموا عليه ، وقتلوه .. وعادوا إلى خنادقهم فتحصنوا بها ..

وتوقفت المفاوضات ، وإذا بسيل عرم يجتاح القاهرة .. وتمتلىء الحارات والأزقة بالمياه ، والأوحال وينشغل الناس بتخفيف الوحل وينتهز الفرصة صارى عسكر الفرنساوية ويهاجم القاهرة فى أكثر من مكان .. من باب النصر والعطوف والحسينية وحاول الأهالى الصمود لكن المفاجأة أذهلتهم وخذلتهم الأرض الموحلة ..

وأشعل الفرنسيون النار فى منازل كثيرة وعشرات الحوانيت فأيقن الناس بالخراب والدمار ..!

أما فى « بولاق » فقد كانت هناك معركة حربية تأديبية بمعنى الكلمة .. إذ هجم الفرنسيون عند الفجر من ناحية نهر النيل وبوابة « أبوالعلا » ودار القتال بالمدافع وآلات الحرب وأشعلوا الحريق فى أكثر من جهة حتى يهرب الأهالى من النار فيقعون فريسة فى أيدى الفرنسيس .. وتحصن البعض فى مسجد السلطان أبو العلا وظلوا يقاتلون حتى أفناهم الفرنسيس .. وغصت شوارع « بولاق » بالقتلى ولم يعد فيها مكان لمرور الناس واستولى الجنود على كل شىء فى بولاق حتى ملابس الرجال والنساء وقبضوا على الحاج « مصطفى البشتيلى » دلهم عليه الناس الذين كان يقودهم .. ورأى القائد الفرنسى أن

تكون نهايته على أيدى رجاله .. فقال لهم بواسطة المترجم إنه السبب فى كل ما أصابهم من مصائب .. من أجل ذلك سوف يعفو عنهم .. ويسلم إليهم الحاج « مصطفى » لكى ينتقموا منه وكان أن جروه مقيدا وبعد أن طافوا به شوارع « بولاق » انهالوا عليه ضربا بالنبابيت حتى لفظ أنفاسه ..!

كان المستعمر يريد أن يلقن أبناء البلد درسا لا ينسونه .. حتى لا يتصدى بطل يقود المقاومة .. لكن ذهب « البشتيلى » وظهر فى كل مكان ألف « بشتيلى » وخرج الفرنسيون وبقيت القاهرة ومات كبير الفرنسيس « كليبر » وعاشت مصر !! .





على باب القلعة



على باب القلعة

الجمعة السادس من محرم ١٢٢٦ هـ القاهرة

من ابن مصر المغلوب على أمره ..إلى من سيقرأ هذه السطور كائنا من كان فى أى زمان ومكان أنا لا أكتب باسمى ولاباسم عائلتى ولا باسم الحى الذى نشأت فيه ؛ لكنى أكتب باسم ما أرى الآن من سماء القاهرة .. وبقدر المساحة التى أطل عليها وتطل علىّ فى غرفتى بمنزلى أكتب من رائحة البارود التى تجثم على القاهرة ..

من رائحة الدم .. من رائحة العفن .. من الموت الذى يتصاعد من الأجسام والرؤوس الملقاة فى « الرميلة » تحت أقدام « القلعة » أغمس قلمى فى عشرات العيون التى يمثلها الأطفال ، وهم يلعبون بالرؤوس المبعثرة عند باب زويلة فقد ضرب الباشا الوالى « محمد على » ضربته اليوم .. ضربها بجرأة الشياطين وحماقة الثيران وبطش الكفار .. استدرج المماليك بحجة الاحتفال بتنصيب ابنه « طوسون » أميرا على الحملة المسافرة إلى « الحجاز » وأرسل فى البلد زبانيته ينادون ألا يتخلف فى ذلك اليوم أحد من المماليك والأعيان وأولاد الناس ومن يتخلف فلا يلومن إلا نفسه ، على الجميع أن يبرهنوا عن إخلاصهم « للباشا » وللباب العالى وأن يرتدوا الخلع السنية والباشية والأحزمة السلطانية ويحضرون على ظهور الخيول أو الجمال أو البغال .. كل طائفة بمالها من صلاحيات وعلى المشاة أن يسيروا فى صفوف منتظمة وأن ينتظروا جميعا صباح الجمعة أمام باب القلعة إلى أن يفتح لهم .. فتدخل طوابير المماليك الخيالة منهم والذين يركبون الجمال .. ثم رجالهم المشاة ، وبعدها طوابير التجار والأعيان وأولاد الناس ..!

وفى ذلك الصباح حاولت زوجتى « أنيسة » أن تصرفنى عن الأمر الذى اعتزمته ؛ لكنها فشلت قالت لى إننى كاتب « جراية » صغير فى الجامع الأزهر وإن أمثالى لامكان لهم فى هذه « المهرجانات » فلن يلتفت إلىّ أحد ووظيفتى ليست بذى حال ..حتى إذا تفقد « الباشا » الكبار لفت نظره الشريف عدم وجودى ..! وعارضت زوجتى ابنة شيخ النحاسين .. بأنها جاهلة لاتعرف لاهى ولاوالدها متطلبات الوظائف وماذا يجب على الموظف الصغيرمثلى أن يفعله حتى يصبح من الموظفين الكبار .. إن وجودى فى مثل هذا « المهرجان » سوف يتيح لى أن أرى « الباشا » ويرانى ، وقد يتسم القدر لى فأصافحه يدا بيد فى زحمة المصافحين ، وقد تحدث المعجزة فيكلمنى وأكلمه . .فيرسلنى « كاشفا » أو « صنجقاً » هكذا تجىء الفرصة .. أما إذا لم أذهب فمن يرانى .؟ ! إن الذهاب إلى « القلعة » كله مكاسب .. ولم تعجبنى نظرة زوجتى الوقحة التى ردت علىّ

بها .. وكأنها تهزأ من أحلامى وتسخر من أمنياتى .. ولم أقم وزنا لاعتراضاتها .. فهى ضيقة الفكر .. جاهلة .. لاعلم لها بمثل هذه المسائل .. أما موظف مثلى .. يشرف على « الجراية» وعلى مخصصات « بغال » المشايخ ولايمكن أن تفلت حفنة شعير « لبغلة » شيخ الأزهر إلا إذا وقعت على صرفها .. من كان فى هذا الموقع الخطير مثلى .. فإن حضوره مثل هذا الحفل يعد ضرورة هامة لتدعيم منصبه ..!!

☆ ☆ ☆

وأمام هذا الغباء الذى أبدته حرمنا المصون .. رفضت أن أطلعها على بقية خطتى .. مضيت أرتدى ملابسى من الجوخ والصوف .. أعدت خصيصا لمثل هذه « المهرجانات » وأخرجت « القاووق » الطويل الذى يحدد وظيفتى فى الجامع وخرجت من بيتى فى « العطوف » سيرا على الأقدام .. حتى جئت « الباطنية » وقصدت المعلم « منصور الشمبرى » فى أن يعيرنى « بغلته » وأن يسرجها بسرج من الفضة ولم يخيب المعلم رجائى .. ففى كل أسبوع أبيعه بقايا « الجراية » بأبخس الأثمان كغذاء لخيول عرباته .. كما أننى أشترى منه « البغال » التى يحتاج إليها الشيوخ وأجزل له العطاء .. مادام الرجل فى كل مرة لاينسى أن يحتفظ لى بنصيبى .. وماكدت أبدى رغبتى له .. حتى أسرع يصدر أوامره إلى العاملين عنده .. وفرغت من شرب القهوة معه وقمت فركبت « البغلة » « المسروجة » واخترقت حارة الروم صاعدا إلى « القلعة » لايشك من يرانى لحظة فى أننى من الأعيان أو على الأقل من أولاد الناس ! !

وراحت « البغلة » تتهادى بى .. أخترق « باب الوزير » والأحلام الوردية تراودنى .. فقد أدخل « القلعة » وأنا كاتب « جراية » وأعود بأمر « الباشا » الوالى « صنجقا » على الجمالية من يدرى . .؟ أو كاشفا على « القليوبية » أو أفندياً على الضربخانة التى تصك النقود . .؟ وهبت نسمة باردة قادمة من ناحية القلعة .. لفحتنى وأنا فوق « البغلة » فانتعش خاطرى والعامة يرمقوننى باحترام شديد ويجرون من أمامى يوسعون لى الطريق ..!

وما كدت أطل على « القلعة » وكنت أظن أننى وحدى الذى جاءمبكرا .. حتى وجدت العجب .. فقد كانت طوابير المماليك بخيولهم المطهمة وملابسهم المزركشة والسيوف التى تلمع بينهم يسدون الطريق وهم يتزاحمون أمام الباب الكبير وآخرهم فى منتصف أرض باب « الوزير » وعددهم لاتحيط به العين وحولهم عبيدهم وجنودهم وأوقفت « البغلة » لكى أختلط بهم وأجتاز صفوف الأعيان والتجار وأولاد الناس فقد كنت أعرف أن المماليك هم الذين سوف يسمح لهم بالدخول أولا ؛ لأنهم رأس البلاد أما ماعداهم فهم الذيول وأقحمت نفسى وسط الرؤوس .

وظللت أتسرب وأحتال حتى وقفت على يمين المقدمة ليس بينى وبين الباب إلا بضعة صفوف .. وماكاد يفتح الباب إيذانا بالدخول وعزفت فرقة تركية كانت على الباب نوبة موسيقى حتى اندفعت مع المندفعين ودقات الطبول وسنابك الخيل وهذا العدد الضخم من المماليك الخيالة يخترق الباب وأخذنى المنظر الذى لم أحلم به يوما ما .. وسبقنى بضعة صفوف لكنى حرصت على أن أكون فى الوسط وكدنا نصل بطلائعنا إلى قلب « القلعة » ونجتاز « حلق » الباب الثانى .. وفجأة وجدنا الخيول تقف وسمعنا صوت صراخ الباب وهو يغلق خلفنا .. ثم استدار الفرسان بالخيول يريدون العودة لكن الباب قد أغلق وانهال الرصاص علينا من البنادق التى فى أيدى الجنود الذين يرابطون فى أعلا السور واستمر إطلاق الرصاص وفزعت الخيول تصطدم ببعضها وتلقى بفرسانها الذين صرعهم الرصاص وبعض الخيول أصيبت فجن جنونها من الآلام وراحت تتصرف بجنون الحيوان الجريح وأقبلت فرقة تعمل السيوف فى رقاب من بقى على قيد الحيـاة ولم يكن هناك بد من ترك « البغلة » وجريت على قدمى إلى داخل « القلعة » وخلعت « جبتى » المزخرفة وبقيت بالقفطان فقط فأصبحت وكأننى أحد خدام « القلعة » وجريت إلى باب مفتوح أحتمى به فإذا به نهاية أبواب المطبخ السلطانى فكمنت داخله حتى ينجلى الموقف واستمرت المعركة أشهدها من مكانى كأننى فى كابوس فقد كان هناك بعض الجنود المشاة يندفعون كالثعالب بين الجثث والخيول المجندلة ويجزون بعض الرؤوس من أجساد المماليك المعروفين ثم يعود كل منهم بحمله وهو فرح يجرى بها ناحية القصر حتى يحصـل على مكافأة من « الباشا » . .!!

كنت أتكوم فى بقعة مظلمة خلف الباب بعد أن اجتزته وطالعتنى بقايا الأجولة وصناديق فارغة محطمة وأوان نحاسية ضخمة لم تعد تستعمل ورائحة العطن والقدم تفوح حتى لأخشى أن أنظر خلفى .. وإذا بيد تتشبث بعنقى فأهب فزعا أوشك أن أصرخ دون وعى لولا أن رأيت اليد تترك آثار أظافرها فى عنقى ثم تقفز أمامى كان حيواناً فى حجم الكلب ؛ لكنى أدركت أنه فأر من فئران المطبخ وبقيت أسترد أنفاسى فشغلنى عن ذلك الذى أمامه موجة الذعر التى اجتاحتنى . ورغم ذلك فقد شدنى منظر جندى تركى وهو يحمل رأس « شاهين بك » المملوك تقطر دما . ويجرى بها من الرحبة الوسطى إلى بهو الأعمدة فى القصر حيث كان ينتظره الباشا الوالى تأكدت من الموت .. أنا الآن فى رحابه وقد أكون ميتا لكن المفاجأة جعلتنى لا أشعر به وعلى أحسن الفروض إن لم أكن قد توفيت فهى دقائق ويلتقى بى مخبول من هؤلاء المخابيل فيرمى عنقى بسيفه أو يجرب فى مقلتى طلقة رصاص ؛ لكنهم من المؤكد أنهم لن يجزوا رأسى لأن الباشا لايعرفنى لست من المماليك العظام . . !

بقيت منعزلا فى هذا السجن الذى اخترته لنفسى حتى لا أموت وأمامى تجرى هذه المذبحة وما أكثر المماليك الذين أعرف صورهم ؛ ولكن لاأعرف لهم أسماء وقد رأيت رؤوسهم وبها شواربهم محمولة فى أيدى الجنود يتسابقون بها إلى « الباشا » وقر فى ذهنى أننى لابد أن أكون مقتولا وكل هذا الهذيان هو مقدمة السكون الأبدى واشتقت إلى هذا السكون الذى سيريحنى من عذاب الذعر والجنون الذى أنا فيه ؛ وتمنيت الموت دفعة واحدة فسكت وحاولت أن أغمض عينى لكن يدا أخرى أطبقت على عنقى من الخلف فخرجت عن صمتى واندفعت إلى الباب ووجدت نفسى خارجاً أجرى كالمجنون وأخذنى جندى فدفعنى إلى داخل المطبخ لكنى تشبثت به وطلبت منه أن ينقذنى فقد ظننى أحد العاملين فى المطبخ . فلما حاولت أن أفهمه لم يفهم فقد كان تركيا لايجيد لغتنا . كان يحملق فى وجهى فاستعنت بيدى أفهمه ؛ لكنه ظل يحملق فىّ خشيت أن يظن أننى من المماليك فقلت له أنا لص حرامى جئت أسرق مطبخ السلطان ثم فى لحظة يأس دفع بى مرة أخرى داخل باب المطبخ وأغلقه علىّ ومضى . .!

لست أدرى على وجه التحديد كم بقيت فى المطبخ لكن أظن أننى بقيت دهرا فقد أفقت بعد فترة وجدت السكون يخيم على كل شيء حولى وأرسلت بصرى من خصاص الباب فوجدت الظلام يغطى كل شيء وأيقنت أنه ليس أمامى الآن إلا أن أفتح الباب وأن أخرج أسير ناحية الباب الكبير إذا كان مفتوحا ولم يعترضنى أحد خرجت ؛ وإذا كان مغلقا أو اعترضنى أحد الجنود سوف أقول له إننى من اللصوص وإننى تسللت لكى أسرق شيئا من المطبخ .

عالجت الباب حتى فتحته كان الظلام شديدا والمشاعل هناك بعيدة على الأسوار واتجهت ناحية الباب وآثار الدماء مازالت على الأرض أحسّها فى بطن نعلى وكانت ثلة من الجنود تقف عند الباب بالمشاعل بعضهم على خيول وبعضهم يقفون على أقدامهم مضيت حتى اقتربت منهم فلم يسألنى أحد ورسخ فى ذهنى أنهم لابد أن يسألونى عند الباب لكنى بلغتهم وجاوزتهم فلم يكلمنى جندى .

اعتقدت أننى ميت ولذلك فهم لايروننى ياللكارثة لقد أصبحت شبحا وعلى ضوء أحد المشاعل تأملت نفسى فى القفطان الذى تمزق وأصبح بلون الأرض ورأسى المعصوب بالحزام الذى كان على القفطان ورأيت ظلى على الأرض فلم أشك أننى من الأحياء ومضيت فى طريقى بينهم وبعد أن مررت بآخرهم سمعت صيحة زلزلتنى .

ياولد يافلاح ..

توقفت .. كيف ؟ لاأدرى والتفت خلفى كان الذى نادانى على ظهر جواد يبدو من شكله أنه كبيرهم قال لى آخر ماكنت أظن أن يسألنى عنه .. أنت متجوز . .؟

هل هذا وقته وماذا يريد منى . .؟ لم أجد مفرا من الإجابة بنعم فسألنى : وهل لى أولاد . .؟ وقلت نعم فقال : وهو يضحك ويشير إلى « قفة » كانت بجوار الجدار خد دى علشان أولادك يافلاح ..

ولم أصدق كانت قفة صغيرة من سعف النخل ممتلئة بالبلح فأخذتها على كتفى وأنا لاأصدق فأغلب الظن أنهم اعتقدونى من المستخدمين فى قصر القلعة وانحدرت منها إلى باب الوزير لايطالعنى أحد تقريبا سوى بقايا المعارك على الأرض وأحيانا على الجدران تهديما وتهشيما أو بقايا دماء أراها لو صادفنى أحد المشاعلية ماشيا .

وقطعت درب الدليل متجها إلى « حيضان الموصلى » لأجتاز « الباطنية » إلى المشهد الحسينى وقبل أن أصل إلى مسجد على بك طالعنى عند زاوية العميان أحد الجنود صاح فىّ بلهجة خشنة ولد يافلاح . .!

فتوقفت فتقدم منى وأنزل القفة من على كتفى فلما رأى مافيها من بلح دب يده فيها فأخرج منها مادفعه فى فمه ثم طلب منى فى خشونة أن أضعها بجوار الجدار وأمضى وكانت أشياء كثيرة بجوار الجدار فمشيت وأنا أقول فى نفسى بضاعتهم ردت إليهم مضيت إلى المشهد الحسينى والمؤذن ينادى للفجر . .! !

فى البيت كانت زوجتى وحولها بعض أهلها من النساء وكلهن قد اتشحن بالسواد كانوا يستعدون لإقامة الحداد علىّ دخلت دون أن أكلمها فقد سألتنى ألف سؤال فى دقيقة واحدة وآخر جملة قالتها لى لعلهم عينوك فى وظيفة ميت قتيل . .! !

لكنى أمسكت بالورق والقلم وشرعت أكتب هذه السطور .. فلما أكملتها .. هممت أن أدفع بها إليها لكنى تذكرت أنها لاتقرأ ولاتكتب لقد توظفت فعلا لكن فى وظيفة كاتب يسجل آلام مواطنيه لعل الأجيال تقرأها وتترحم علينا ..!!







الشمس دائما عالية



الشـــمس دائما عاليـــة

* * * « لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية » بهذه العبارة اختتم المنشور الذى بعث به الفرنسيون إلى المصريين .. فقرأه عليهم المشايخ ، وعلقت منه عشرات النسخ على نواصى الشوارع .. فى محاولة لبث الطمأنينة ، ونشر السكينة .. بين القلوب المفزعة ، والعيون الزائغة ، والأفئدة المخلوعة ..

فمنذ ثلاثة أيام ، والمماليك ، والأمراء ، والأغنياء .. يفرون من « المحروسة » كأنما داهمتهم الكارثة .. يولون الأدبار .. يحملون من متاعهم ما يستطيعون ، ويتركون ما يرهقهم حمله .. أبناء البلد ، وأصحاب الحرف ، والدخول المحدودة .. هم الذين بقوا .. على الأعتاب .. أو على المصاطب .. أو فى مداخل البيوت .. تتقطع أنفاسهم ، وهم يشهدون « المحروسة » .. تتقيأ الذين كانوا يجثمون على صدرها .. ويوحى صراعهم على الفوز بالفرار .. إنها سوف تحرق بعد أيام .. بأيدى « الفرنسيين » ..؟

لم تكن الوطنية فقط هى التى أمسكت بالذين قبعوا .. بل لعب الفقر الدور الأول ، والعجز عن الحصول على بغال أو جمال أو خيول للهرب عليها .. فقد بلغ ثمن الحمار الهزيل أضعاف الأضعاف .. أما الحصول على الركائب الأخرى فكان ترفا .. لا يحلم به ابن البلد .. وثمة شيء آخر .. هو أن سكان الأزقة لا يعرفون لهم بلداً سوى « المحروسة » ، ويشعرون أن الموت سيدركهم إذا خرجوا منها .. كالموت يدرك السمك إذا غادر الماء ..!

ولهذا ركبوا جميعا القلق ، وضيق ذات اليد .. وباتوا ينتظرون ما يأتى به الغد .. فى استسلام .. يعانق اليأس فيه الرجاء ، ويستنبتون شجاعة مجهضة للقاء « الفرنسيس » والمقاتلة إذا قاتلوهم .. أما إذا كانوا كما ادعوا فى « المنشور » ، ولا هدف لهم إلا طرد المماليك من « البر المصرى » لكى يكون خالصا لأبنائه أولا .. ثم للسلطان ثانيا .. فإن الله فى هذه الحالة يكون قد كفى المصريين شر القتال ..!

لكن الذين غادروا « القاهرة » فى اليوم الثالث من « الزلزلة » .. ما كادوا يضربون فى الصحراء ، والقفار .. حتى طلع عليهم الأعراب ، وكانوا قد علموا بورطة الهائمين على وجوههم .. فهاجموهم فى خسة ، وجردوهم مما يملكون .. حتى ثيابهم نزعوها من عليهم .. وقتلوا العديد من الحراس الذين قاوموهم والعبيد الذين تصدوا لهم .. يحاولون حماية الحريم .. وعادت بعض الفلول المهزومة .. يجرون خلفهم العار ، أو امتلأت

نفوسهم بالجراح المريرة .. واحتشدت الأفواه بالمرارة ، والقلوب بالحسرة .. وبعضهم كان يستحى أن يدخل مهزوما نهارا .. فيترقب الليل .. ثم يزحف مستترا بظلمة الليل ..!

هرب « إبراهيم بك » إلى الشرقية قاصدا « غزة » ، وفر « مراد بك » إلى الصعيد .. مع مماليكه الأربعة آلاف الذين قتل بعضهم بمدافع « الفرنسيين » فى معركة « إمبابة » واحترق بعضهم فى الأسطول الذى كان محملا بالذخيرة .. وكان يرابط عند « مصر القديمة » فلما سقطت عليه قنابل « الفرنسيين » اشتعلت فيه النار ، وظلت عشر ساعات متصلة .. ظن أهل « القاهرة » أن الجزء الجنوبى تحول إلى أكوام من التراب ، وأن « الفرنسيين » يعيدون فظائع التتار ..!!

غير أن كل ذلك الرعب لم يفت فى عضد .. الصعاليك الذين اهتبلوا الفرصة ، فقد كان مافى صدورهم من حقد على المماليك .. أكبر من كل ذلك الهول .. فاندفعوا يهجمون على قصورهم .. ينهبونها ، ويخطفون ما عجز المماليك عن حمله ، ولم يكن بالقليل ..!

لم يكن الحقد وحده هو الذى يقود وإنما كان الجوع أيضا .. كان إغراء المال الذى ذهب عنه صاحبه .. فقد أغلقوا القصور على كثير من وثير الفراش .. ورائع التحف ، وبعض الغلال ، والبن ، والسكر ، والحريم والجوارى ، وكان الصعاليك لا يجدون الدراهم ، وإذا وجدوها لا يجدون الطعام ..!

وبينما كان « فتوح البنهاوى » فى حانوته فوجىء بالدخان يتصاعد من قصر « سليمان بك أغا الكاشف » الذى خرج مع « مراد بك » للقاء « الفرنسيين » عند « إمبابة » وكانت الأنباء قد وصلت تقول إنه ألقى فى « النيل » هربا من قسوة القتال ، ومملوك آخر كان اسمه « إبراهيم الصغير » وقد تأكد غرق « إبراهيم الصغير » بعد إخراج جثته .. أما « سليمان أغا » فلم يعرف أحد مصيره ..!

وللوهلة الأولى خفق قلب « فتوح البنهاوى » .. ارتفعت ضرباته .. كان الدخان يتصاعد منه .. لم يكن يهمه « الكاشف » .. بل ربما لبرهة أحس بالتشفى .. ولم تكن تهمه التحف ، ولا الثروة التى تحترق .. شىء واحد فى ذلك القصر .. انخلع من أجله قلبه .. ذلك أن « شمس الضحى » ابنة « الكاشف » كانت تعيش فى القصر .. ويخشى أن يصيبها مكروه ..!

وقفز من مكانه .. فقال لجاره « عزوز النشوقاتى » .. أن عليه أن يلقى باله إلى حانوته .. ريثما يطمئن ويعود .. قلبه يحدثه .. أن « شمس الضحى » فى خطر ..!

وشيعه « عزوز » بنظرة رثاء ، ومصمص شفتيه أسفا .. على العاشق الذى مات حبه فاحتفظ بجثته لا يريد أن يدفنه .. فمنذ شهور كانت « شمس الضحى » فى موكب

صغير من زميلاتها .. موكب لم يضم سواها ، وزميلتين ، وجاريتين إحداهما بيضاء والأخرى حبشية .. كانت تحمل الطعام والثياب .. كان الموكب فى طريقه إلى الحمام .. وعرج الموكب على حانوت « فتوح » ليشترين منه بعض ما يلزمهن ..

ومن النظرة الأولى إلى عين « شمس » لم يعرف ماذا حدث له على وجه التحديد .. حاول وعجز واستسلم للعجز .. ثبت بصره فى ليل عينيها .. وخيل إليه أنه يعيش راحة المكدود فى ظلمة الليل ، ويخاف خوف السائر فى الليل وحده .. واجتاحه الحذر الذى يجتاح الذى يهوى من حالق .. وطالت اللحظة كأنها الدهر .. فلما أرخت أهدابها تتقى نظرته الثاقبة .. أوشك أن يصرخ ، ورفع يديه .. فقد أيقن أن الدنيا ستطبق عليه ، وأنه سكن فى ليل عينيها ..!

ثم تنبه إلى أنه بائع ، وأنها أميرة فى فتياتها .. فعاد إلى وعيه ..!

ولم يكن ما أحست به الفتاة بأقل مما أحس به .. وطوى كلاهما أحاسيسه داخل تجاويف ضلوعه .. فقد تكون المسألة لا تعدو الانبهار .. الذى يصحب دائما اللقاء الأول .. لكن الأسبوع الثانى أكد ، وضاعف ما حدث فى اللقاء الأول .. واستمع إلى صوتها ، وهى تحدثه .. وكان الموكب هذه المرة فى عدد قليل .. لم يصحبها سوى جاريتها ، وراح اللقاء يتكرر كل أسبوع .. وسأل « فتوح البنهاوى » نفسه ؟ ماذا حدث له ..؟ وماذا حدث فيه ..؟

أحس أنه لابد أن يشكو ما به إلى « عزوز النشوقاتى » فهو منه بمثابة الوالد .. فمنذ أن حل فى الحانوت مكان والده ، وانقطع عن الأزهر بعد موته .. « وعزوز » يأخذ بيده فى التجارة ، وهو يستشيره فى كل شىء .. بل إنه كان يعرف كل أسرار والده التجارية .. حتى الديون التى له ، والتى عليه .. « عزوز » لا ينظر إليه إلا على أنه ابنه ..!!

وحينما فرط مافى أعماقه « لعزوز النشوقاتى » .. استمع الرجل فى حذر .. لم يكن الكلام كله جديدا عليه .. كان يعرف العنوان فقط .. ولكنه بعد أن استمع إلى التفاصيل .. ملأ فتحتى أنفه بكمية من السعوط .. ثم قال له .. إن « شمس الضحى » ابنة « سليمان بك الكاشف » أمها مصرية من الحسينية .. كان قد تزوجها .. أيام أن كان جنديا ، وهى ليست ابنته الوحيدة .. فله خمس بنات من زوجات أخريات ، والخوف فقط قد يجىء من أنه يكون قد ادخرها ليزوجها من مملوك مثله .. أو .. أو .. أو يرشو بها « كتخدا » فى شكل زواج .. أو يطمع لها فى مملوك كبير القدر « كمراد بك » مثلا ..!

لكن العاشق رفض هذه الاحتمالات ، وأقنع « عزوز » بأن موافقة « سليمان بك »

واقعة لا محالة .. وأن عليه فقط أن يتفضل بالذهاب معه .. لطلب يدها ..! ورغم شكوك « عزوز » إلا أنه استطاع أن يقنع بعض الرجال من الأعيان فى الخط لكى يرافقوه فى الرحلة الخطرة ..وأعد « فتوح » هدية تليق بالمناسبة ، وأرسلها مع أحد عماله .. ضمنها كل شيء .. حتى الشمع والبخور ، ومختلف أنواع العطور ..!

واستقبلهم الكاشف « سليمان بك » فى مجلسه .. ومعهما « محمود الملا » شيخ الخيامية و « سعيد جمل المحمل » زعيم العائلة التى تتوارث قيادة جمل المحمل ، « وعلى الماوردى » كبير تجار الخط ، وفاتحه « عزوز » باعتباره أكبرهم سنا فى طلب يد الأميرة « شمس الضحى » « لفتوح البنهاوى » « زينة التجار » ، والذى قضى سنوات فى الأزهر .. ثم حل مكان والده فى التجارة ..!

وأغرق « الكاشف » فى الضحك حتى استلقى على قفاه واقشعرت أبدان الرجال ، وأحسوا أنهم يسبحون فى عرق بارد .. فلما انتهى من الضحك ، ومسح الدموع التى ازدحمت بها عيناه .. نظروا إليه ينتظرون الجواب .. فأغرق فى الضحك مرة أخرى .. وقال عقب ضحكته الثانية .. أنه يعفو عنهم .. لأنهم كبار السن ، ولو كان « فتوح » وحده لما تورع عن جلده .. « فشمس الضحى » لا يجب أن تتزوج بأقل من أبيها .. مكانة واسما ، وإمارة ..! وحذرهم أن يتناقل الناس أن « فتوح » تجرأ على مثل هذا الطلب ، وإلا عاقبهم بما يجب أن يعاقبهم به ..!!

وها هو ذا يسارع مهرولا .. خشية أن يكون قد امتدت يد بالأذى إلى « شمس الضحى » .. فقد نهبت قصور المماليك ، واعتدى على الكثير من ساكنيها .. حينما اقترب من القصر كان يبدو كحيوان خرافى بقرت بطنه .. كل شيء فيه مهلهلا .. حتى الأبواب مخلوعة ، والنوافذ ألقيت بعيدا بالمشربيات ، وبقايا نيران تلتهمها .. والصياح يختلط مع الغوغاء ، وزمجرة النيران ، ووقف للحظة لا يدرى ماذا يفعل .. أين « شمس » من هذا كله ؟ واخترق الجموع .. وظن بعضهم أنه يريد أن يستولى على شيء يعرف مكانه .. وظن بعضهم أنه يريد أن يتشفى .. فقد كانت القصة ملأت حوارى الحى ، وأزقته .. وأسرع إلى الحريم .. وهو لا يجد بدا من أن يصيح .. « شمس » .. « شمس » أين أنت يا « شمس » ..؟

واصطدمت به جارية عجوز بيضاء .. تجاوزت الستين .. صاحت به .. تقبل يديه أن يستر عمرها .. فصاح فيها أن تدله على مكان « شمس » .. فلطمت الجارية خديها وهى تقول له .. كيف يلقى الله .. إذا أخذ الفتاة الحرة البكر إلى ما يريد .. لكنه حاول أن يفهمها ، والدخان يتكاثف شيئاً فشيئاً ، وبدأت الانهيارات من الناحية الشرقية فى القصر ، وصرخ فيها .. أين « شمس » ؟ ، ولكن المرأة سقطت مغمى عليها .. فتركها ، وجرى فى دهليز طويل .. واصطدم بثلاثة من الصعاليك يجرون ، وقد حملوا بعض

الأمتعة .. وصاح فيهم أين الحريم ..؟ أين الحريم ..؟ فأغرقوا فى الضحك ، وهربوا بما كانوا يحملونه .. وصعد السلم الضيق المؤدى إلى الطابق الثانى .. كانت النار تتراءى له ، وهى تلتهم الناحية الأخرى من القصر .. وألسنتها تلعق الطابق الذى اقتحمه .. ولم يدر إلا ويد تقبض على كتفه ، وصوت ناعم غاضب يصيح فيه .. كيف سمحت لنفسك أن تدخل الحريم .. ألا تستحى ..

واستدار فى فزع وعجلة .. كانت مفاجأة .. وهمست دون أن تدرى « فتوح » .. أما هو فقال كأنه لم يسمع همسها .. ماذا تنتظرين ..؟ هيا .. تعالى معى ..! قبل الخطر الداهم ..!

لكنها لم تتحرك .. كان على ثقة من أنها ستتبعه .. إلى حد أنه قبض على معصمها .. فإذا بها تقوم بحركة .. تشل مشاعره ، وتربك خواطره .. فقد سحبت يدها من قبضته بعصبية .. وهى تقول .. إنها تفضل أن تموت هنا ولا تذهب لاجئة إلى رحابه ..!!

لولا أنه تماسك لانهار .. بالفعل استند إلى الجدار الذى كان خلفه .. هربت منه الأحاسيس ، وجمد كل شىء داخله ، وخارجه .. حتى الضجيج الذى كان يصم الآذان لم يعد يسمعه .. فقط راح يحملق فيها ، وقد امتزج فى ملامحها الغضب ، والأسى ، ولمعت فى عينيها كل المعانى التى تتألق فى عيون النبلاء ، وهم يقدمون على الاستشهاد .. وأدرك ما فى خواطرها .. فازداد هلعه .. فالموقف لا يحتمل .. وقال لها .. إنك بذلك تنتحرين .. فلو نجوت من الحريق .. لن تفلتى من أيدى الصعاليك ..!

قالت فى إصرار كالطفل الذى يصر على الخطأ .. هذه حياتى ، والأعمار بيد الله .. وأوشك اليأس أن يعيده يائسا .. واستدار ليهبط الدرج .. لكنه .. رجع فى استدارته ، وهجم عليها فتضاءلت هابطة إلى الأرض تحاول أن تحمى نفسها من ذراعيه .. إلا أنه خطف ستارة من الستائر التى كانت معلقة بجانبه وألقاها عليها .. ثم مالبث أن حملها على ظهره ، وأسرع يهبط ، وألسنة النيران تجرى خلفه كأنها تطارده ..!!

وإذا بأحد الصعاليك يتصدى له ، وهو على الباب الكبير .. ويصر على أن يقاسمه ما يحمله .. وجن جنون « فتوح » ، ووضع حمله على الأرض فى رفق .. ثم اتجه إلى الصعلوك .. فانهال عليه ضربا ، وتلقى منه بعض اللكمات .. إلى أن استطاع أن يطرحه أرضا .. وعاد إلى الستارة ليحملها .. فإذا « بشمس » غادرتها .. وغابت فى الزحام ..!!

وقف واليأس يجرى فى عروقه بدلا من الدم .. ألقى نظره إلى بقايا القصر ، والنار تلتهمه شيئا فشيئا ، ولم يبق فيه إلا مالا يسمح حتى بالاختباء فيه ساعة .. واستبعد أن

تكون عادت إلى القصر .. وأحزنه أنها تكرهه إلى هذا الحد .. ماذا فعل حتى يلقى منها كل هذا ..؟!

وسار نحو حانوته .. كأنه يشيع جنازة نفسه .. ولقاه « عزوز » عند الحانوت مبتسما .. وأذهله أن يراه « عزوز » بكل هذا الذل فيبتسم .. لكن « عزوز » أسرع يقول له .. إن « شمس » جاءت منذ لحظة ، وهى فى قاع حانوته من الداخل ، وقالت له كل شيء دار بينهما ..!!

لم يصدق .. وحاول أن يترك « عزوز » ليقفز إلى الداخل .. لكن « عزوز » قال له .. مكانك فهى طلبت حمايتى لا حمايتك .. إنها ترفضها ..!!

مرة أخرى يقف مكانه ، وتدور ساقه اليمنى على اليسرى .. كأنه يتخبط من مس من الجن أو يموت واقفا .. تمهيدا ليسقط كما تسقط الأشجار .. وجر نفسه نحو « مصطبة » حانوته ، وجلس ..!!

وفى اليوم الثانى .. نادى منادى « الفرنسيين » .. أن كل من حصل على شيء من أمتعة المماليك والأمراء عليه أن يقدمه إلى « القائمقام » فى ظرف يومين .. فإذا ضبط لديه بعد ذلك كان عقابه الموت ، وينطبق ذلك على الجوارى ، والحريم ، ومن يأويهن .. وكل من تقدم أموال زوجها أو سيدها أو والدها الأمير تنج من العقاب .. أو تشترى نفسها بألف ريال فرنساوى ..!

وأسرع « فتوح » إلى « عزوز » يطلب منه يد « شمس الضحى » حتى تصبح زوجته ، وإلا كان عليه أن يسلمها للفرنسيين .. ولما عرض عليها الأمر .. قالت إنها تفوض الشيخ « عزوز » وجيء بالشهود ، وأعلن زواج « فتوح » من « شمس الضحى » وانتقلت إلى بيته .. ولعله حينما اقتحم غرفتها ، وهى فى أتم زينتها .. لم يكن يصدق ما وقع .. فأسرع فى لهفة يحاول أن يحتضنها .. فإذا بها تفلت من يديه .. وتنظر إليه وهو فى دهشة .. ثم تقول :

. أنقذتنى المرة الأولى من الصعاليك ، وهذه المرة من الفرنسيين .. فانتظر حتى أعطيك أنا الثمن .. فالثمن لا يؤخذ عنوة .. إنه حقك .. سوف أخلع ملابسى على مهل ..!!

وخرج يهرول فلم يبت فى البيت هذه الليلة .. !!




الحريم أيام المماليك
حسن الفلاح



حكاية حسن الفلاح

*** * * الصمت تجرحه الهمسات .. يهيمن وقت الغسق على « القلعة » ، الشوارع والحوارى خلت من المارة أو كادت .. إلا من أصوات السياط تدوى فى الهواء .. وصراخ العسكر المغاربة .. واستغاثات مكتومة صادرة من سيىء الحظ .. الذين قدر لهم أن يكونوا خارج دورهم . فى مثل ذلك الوقت .. وبعضهم يندفع خوفا ورعبا إلى بيوت غير بيوتهم .. تفاديا لسياط العسكر ..!**

فالمنادى ملأ المحروسة منذ ظهر اليوم صراخا .. يعلن أن « الباشا » قد علم أن الأمراء الهاربين المارقين فى صعيد مصر .. « مراد بك وإبراهيم بك » ورجالهم قد أنزلوا « تجريدة » من جنودهم لتندس وسط العامة ، والدهماء وتفسد بين الناس ، ولهذا فهو يأمر بأن يكون الجميع فى بيوتهم من بعد صلاة المغرب ، وألا يخرج كبير أو صغير .. إلا من ذوى الرتب والوظائف المعاونة للوالى ، ومن يقبض عليه خارج داره أو يثبت عليه أنه عاون بعض المارقين أو آواه .. فإن ذنبه على جنبه ، ويتحمل نتيجة عمله .. ولم تبق جهة فى المحروسة لم تسمع النداء من « طرة » جنوبا حتى مشارف « قليوب » ..!

واختلط الأمر على القادم الغريب .. كان يظن أنه سوف يبلغ المكان الذى يريده قبل الغروب لكن الخطر أوشك أن يحيط به .. لقد حمل « المكاتيب » من « مراد بك » إلى رجل يسكن قرب « جامع قيسون » يدعى « خليل البغدادى » .. وهو يعرف أن مهمته فى قمة الخطورة ولا عقاب لها إلا الموت .. ولم يكن مرغما على قبولها ، وإنما أقدم عليها لعدة أسباب فى مقدمتها أن يدخل المحروسة التى طال شوقه إليها .. وأن يرى أمه ، وأن يتصل بالجارية « نرجس » وصيفة « نفيسة هانم المرادية » ولو استطاع أن يأخذها معه إلى الصعيد لفعل ..! فقد وعدته « الهانم » أن تزوجها له ... بعد أن تقنعها إذا اجتمع الشمل وعاد « مراد بك » شيخاً للبلد كما كان .. لكن الأيام تتوالى « والعثمانلية » وعلى رأسهم « الباشا » الوالى لا يتزحزحون عن المحروسة و« إسماعيل بك » يستفحل شأنه كل يوم ..!

و « إسماعيل بك » يدرك تماما .. أن فى عودة « مراد بك » هلاكه تماما ، والقضاء على نفوذه لذلك يحرص الباشا على رفض طلبات الأمراء القبليين ، وعدم الاستماع إلى خطابات طلب الصلح التى يرسلونها ، ويؤكد له أن طبيعتهم الغدر ، والخيانة ، وأنهم إذا

عادوا إلى القاهرة ، واجتمع حولهم أعوانهم فسوف يقفزون إلى « القلعة » ويحبسونه ويعلنون العصيان عليه وعلى السلطان خليفة المسلمين .. لكى يأخذوا مال مصر كله لحسابهم ، وليس ذلك فقط بل إنهم سيتعاونون أيضا مع أعداء السلطان من الكفار .. ألم يضبط المراسلات التى تؤيد ذلك ..؟

تراجع « حسن الفلاح » يحاول أن يتستر بأحد الجدران القريبة من البساتين يختفى عن عيون العسكر .. على أن يسعى إذا عم الظلام لعله يدخل المحروسة .. أو يبيت فى حفرة قريبة من المقابر .. ثم يدخل فى الصباح مع القادمين من « طرة » إلى القاهرة .. إنها مغامرة لابد منها .. فليس فى الإمكان أن يصل الليلة إلى منزل « خليل أفندى البغدادى » وانثنى يدور حول نفسه ويطلق بصره فى العتمة التى بدأت تجتاح كل ما حوله ..!

تضاربت فى أعماقه عشرات المشاعر .. لكنه لم يندم ولم يفكر فى الندم .. فقد قبل المهمة وهو على يقين بالمخاطر التى سيلقاها .. لكنه يريد « نرجس » وهى تريده وسوف يدفع الثمن « لنفيسة هانم » بما يحمله إليها من « مكاتيب » « مراد بك » وأخباره وبما يحمله إلى « خليل أفندى البغدادى » رجل « مراد بك » وأحد أتباعه المخلصين سوف يلتقى « بنرجس » التى تعيش لياليها على أمل واحد هو أن يتحقق حلمها وتعيش زوجة له .. زوجة « لحسن الفلاح » .. يسكنون بيتا صغيرا فى قلب المحروسة ، ويعمل فى معية « مراد بك » كما يعمل طول عمره كبيرا للباسرجية المسئولين عن سروج الخيول !

وأفزعه أن يخرجه من سياحته الفكرية هذه ضجة قادمة .. مشاعل وأصوات .. والنهار لفظ أنفاسه والعتمة تمكنت من الأفق ، وأخضعت الفضاء لسطوتها المظلمة وتبين أن جماعة من الأهالى قدموا لدفن أحد الموتى وأدرك أن الله أتاح له هذه الفرصة خصيصا لكى يستطيع أن يندس بينهم أثناء عودتهم وزحف من مكانه نحوهم .. كانوا مجموعة من الرجال والشبان .. لم يكن فيهم من يعرفه وما كاد « التربى » ينتهى من مهمته حتى اندمج فيهم مستعينا بالليل وراح يرسم على وجهه ملامح الحزن التى يجب أن يحملها من يجىء فى مثل هذه المهمة . وفى لحظات كان يعود معهم إلى المحروسة ، وما كاد يقتحم شوارع حى « القلعة » حتى أسرع يختفى فى « الصليبية » يحاول فى تلصص أن يصل إلى جامع « قيسون » حيث منزل « خليل البغدادى » ..!

طرق الباب بأصابع مرتجفة ، وفتح له أحد الخدم .. فقال له إنه يرغب فى لقاء « خليل أفندى » وسار أمامه إلى قاعة داخلية ، وجاء بسراج مشعل .. ثم غاب عنه بعض الوقت ، وأقبل بعد فترة ليعلن له أن « خليل أفندى » قادم ، واقتحم القاعة رجل مهاب عليه سمات الأتراك .. بهى الطلعة .. يبلغ الخمسين من العمر أو ينقص قليلا .. وهب « حسن » واقفا فأمسك بيده الممدودة فقبلها ، وهو يقول إنه قادم فى أمر هام على جانب عظيم من السرية .. وأشار « خليل أفندى » إلى خادمه فغادر القاعة ، وتلفت « حسن »

فلما أمن .. دفع بيده داخل ملابسه فأخرج مكتوبا من جراب جلدى دفع به إلى « خليل أفندى البغدادى » .. وفضه مقتربا من السراج فلما قرأه تهلل وجهه ، وطلب منه أن يأوى عنده الليلة ، وفى الصباح ينصرف محاذرا ألا يراه أحد من معارفه .. فيتصل « بالهانم » زوجة « مراد بك » ، وسوف يعد له رد الرسالة فى موعد أقصاه ثلاثة أيام ، ومنحه كيسا من الدنانير يستعين به ..!!

وانطلق « حسن » فى الصباح إلى بيت « نفيسة المرادية » ودار حول البيت عدة مرات يستوثق من أنه لا يوجد أحد من « البصّاصين » حوله .. فلما اطمأن .. زحف نحو الباب ، وكان أحد « العبيد » يجلس على « دكة » مغطاة بفروة خروف .. وعرفه لكن الخادم العجوز لم ينطق إلى محدثه ، وقال له إنه أحد أبناء الحى ، وإن زوجته تضع الآن ، وهو فى حاجة إلى إعانة ، ولابد أن يلقى « نفيسة هانم » فهى لمثل هذه الأمور دائما .. وحاول الرجل العجوز أن يقصيه لكن « حسن » تشبث ، وأصر على لقاء « الهانم » .. فطلب منه أن يدخل إلى غرفته هو حتى يستأذن له .. ونادى على غلام من « غلمان الحريم » وطلب منه أن يبلغ جارية الحرملك أن أحد أبناء الحى يلتمس مقابلة سيدة القصر ..!

بعد محاولات كان « حسن » يمثل بين يدى « نفيسة هانم » ، وما كادت تتناول منه « المكتوب » حتى انهمكت فى قراءته .. ثم سألته عن الأمنية التى فى وسعها أن تحققها له .. فأطرق وهو يقول :

– نرجس يامولاتى الأميرة .. رد الله لك الأمير « مراد بك » ..!

– لكن كيف تمضى بها إلى الصعيد ..؟

– هى مغامرة ياأميرة .. لكنها سوف تكون زوجتى أمام الله وأمام الجميع ؟

– إن « كاشف طرة » يغلق الطرق ، ويفتش جميع المراكب .. فماذا لو أخذها منك ؟

– لن يأخذ زوجة .. أنا صعيدى وزوجته عائدان إلى قريتهما ..

– هى لك يا حسن .. إذا ما وافقت هى على ذلك ..!

لم يصدق .. لولا هالة الوقار التى يقر فيها الموقف لرقص من فرحته .. وأمرت « الهانم » على الفور .. فاستعدت « نرجس » وهى فى حالة انعدام الوزن .. لا يخطر ببالها أن ما يجرى حقيقة واقعة ، وأنها بعد ساعات سوف تصبح حرة وزوجة « لحسن الفلاح » .. لقد برت الأميرة بوعدها لهما .. وبقى أمر هام بالنسبة « لحسن » .. فهو يريد أن يذهب إلى أمه فى « خط باب اللوق » ، ولو أنه شوهد فى الحى .. لذاع خبر

وصوله ، والكل يعرف أنه مع « مراد بك » ولا يخلو الأمر من عيني « بصّاص » ماهر .. يلقى القبض عليه ليحصل على مكافأة طيبة ..

وعرضت عليه « الأميرة » أن يختفي في القصر فلا يغادره حتى تجهز له « نرجس » وتهييء له ما يعينهما على الرحلة ، فلا يخرج من القصر إلا مع « نرجس » ليسافرا إلى الصعيد .. ولم يخف قلقه عن عيني الأميرة .. التي أدهشها أن يظل قلقا بعد كل ذلك .. فلما سألته عن السر طأطأ رأسه وأعلنها أنه يريد أن يرى والدته فى « باب اللوق » ، وأن ترى عروسه أيضا .. وقررت « نفيسة هانم » أن ترسل إليها من يجيء بها .. ففى ذلك صيانة للسر وأمان من الأخطار التى قد يتعرض لها ..!

كل ذرة فى كيان « حسن » فرحة ، وكلما ملأ بصره من « نرجس » تضاعف إحساسه بالفرح .. وأفهم أمه ألا تفتح فمها بكلمة مع أحد ، وفى نهاية الأيام الثلاثة استأذن الأميرة فى الذهاب إلى منزل « خليل البغدادى » فخرج بعد صلاة العصر ، واحتال حتى دخل على الرجل الذى أسرع يضع الرسالة فى جراب من الجلد ، ودسه « حسن » داخل ملابسه .. ثم ودعه ، وخرج يسعى نحو بيت « نفيسة هانم » ..

وفى فجر اليوم التالى .. أحضر حمارا حمل عليه بعض ما أهدته لهما « المرادية » ، وأركب « نرجس » فوقه وساقه أمامه .. وارتدى من الملابس ما يؤكد أنه صعيدى فى طريقه إلى بلده ..

وقبل صلاة الظهر كان قد بلغ « طرة » ، وفكر فى أن يتفادى التفتيش بأن يضرب فى الصحراء ، ولكن خشى أن يقع فى أيدى « الأعراب » ، وهم أشر من « كاشف طرة » .. وقرر أن يسير فى الطريق العادى .. وأخذه جنود الكاشف إلى حيث « الأريكة » ليسمح له بالمرور وركوب المراكب المسافرة إلى الصعيد ، وبعد أن سأله الكاشف عدة أسئلة ، طالبه بمبلغ دفعه ، وأخذ منه الحمار فلم تعد به إليه حاجة ، وجرده من بعض الملابس .. ثم أمر له بالسفر فى إحدى المراكب ، وحمد الله « حسن الفلاح » على أن الأمر أوشك أن ينتهى دون خسائر تذكر ..!

والتفت إليه « الكاشف » يسأله إذا كان له أهل يبيت عندهم فى « طرة » أم لا ..؟ فأجاب بالنفى فعرض عليه أن ينزل فى بيت الضيافة حتى يأمن شر اللصوص ، وقطاع الطرق .. ولعب الفأر فى داخله .. وأدرك أن بيت الضيافة لا يأوى سوى الرجال ، ومعنى ذلك أن « نرجس » سوف تذهب إلى الحريم ، وفى الليل يدهمها « الكاشف » أو زبانيته ، وتردد « حسن » فحاول أن يدعى أن أخوال زوجته يسكنون « طرة » وأنه سوف يبحث عنهم ليقضى الليل عندهم .. لكن « الكاشف » صاح فيه .. إن ذلك يسبب إخلالا بالأمن .. يجب أن يمضى إلى بيت الضيافة فورا .. وإلا فأنه لن يسافر .. ولم يكن هناك مفراً من الطاعة ..!

أسقط فى يده .. ذهبا إلى بيت الضيافة .. أحس هو أنه يساق إلى حتفه .. لمعت فى رأسه فكرة .. طلب من « نرجس » أن تدخل « حمام » بيت الضيافة ، وترتدى ملابس رجال من ملابسه .. وسوف يرتدى هو ملابس جارية .. قبل أن يقترب الليل صح ما توقعه .. أقبلت جارية حبشية .. هى المسئولة عن حريم الضيافة فقالت له إن مكان السيدات فى الداخل .. قام معها « حسن » وهو فى ملابسه الجديدة .. وما كادت تختفى به .. حتى دفع إليها بكيس من الدنانير .. فأخفته فى ملابسها ، ودفعت به إلى جارية أخرى هى المسئولة عن « الحمام » فدفع إليها بكيس هى الأخرى ، ورجاها أن ترحمه من « الحمام » فوافقت وأخذته إلى مخدعه ..!

أدار بصره فى المخدع الخاص « بالكاشف » الذى يفترس فيه ضحاياه .. كان شيئا لم يخطر له ببال .. الذى لفت نظره أكياس الدنانير الموضوعة على منضدة .. ورأى نفسه فى مرآة كبيرة بجوار السرير ، وهو فى هيئته الجديدة فكاد يضحك لولا أن فتح الباب ، ودخل « الكاشف » وهو فى حالة سيئة من السكر .. وصاح يصرف الجارية ، وأغلق الباب ، وراح يتقدم نحوه ، وهو « يرطن » بألفاظ الغزل .. ويتطوح يمينا وشمالا .. وتركه يتقدم منه حتى أصبح فى متناول يديه .. ثم فجأة مد يده فقبض على عنقه وراح يضغط بكل قوته محاذرا أن يترك له فرصة الاستغاثة .. دهش « الكاشف » حاول أن يدافع عن عنقه .. أخيرا تراخت يداه .. ازرق وجهه .. جحظت عيناه .. بدأ يموت شيئا فشيئا .. ثقلت رأسه ، سقطت على يدى « حسن » تركه يهوى إلى الأرض جثة هامدة !

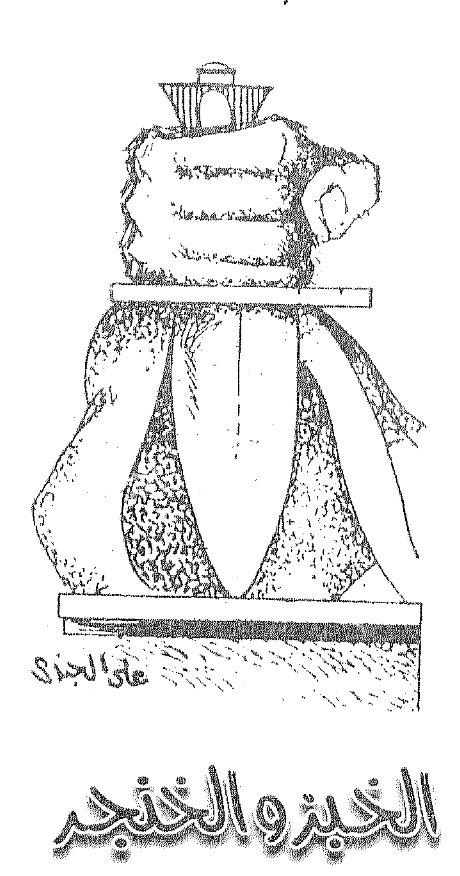
ارتدى ملابس رجال من التى وجدها فى المخدع ، وجمع أكياس الدنانير فألقاها فى داخله ، فوق الحزام ، وتسلل متسترا بالظلام إلى بيت الضيافة فأخذ « نرجس » وقبل أن ينبلج الفجر .. كان على « الموردة » يتفق مع أحد أصحاب المراكب المسافرة إلى الصعيد .. وحتى يغريه على الإقلاع قبل أن تطلع الشمس .. أعطاه كيسين من الدنانير ..!

بعد أيام .. كانت المراكب قد وصلت إلى « بنى سويف » حيث معسكر « مراد بك » .. كان « حسن الفلاح » يروى القصة له ، وهو يضحك ، ويضرب الأرض بقدميه .. ثم أمر له بمائة كيس ، وأصر على أن يقيم لهما الفرح .. فقد كان سعيدا بالرسائل التى جاءه بها « حسن الفلاح » من رجله « خليل البغدادى » ومن زوجته « نفيسة المرادية » .. وبعد أيام وصل خبر قتل « كاشف » طرة قالت الإشاعات أن جارية من جواريه خنقته وهربت تحت جنح الظلام ..!!





الحريم أيام المماليك



الخبز و الخنجر



الخبز والخنجر

** * المسافة بين جامع قلاوون وحارة بيرجوان مزدحمة بالناس .. لا سبيل إلى السير فيها .. والناس قاماتهم طويلة .. تلتف حول بعضها كأشجار غابة قوية .. أقدامهم تغوص في الأرض .. الكل يختلطون .. يتصايحون .. المشاعل التي تضيء وجه الظلمة كثيرة لا تكاد تحصى ..**

بعضها معلق على الجدران وبعضها يحمله الرجال ومشاعل فوق بغال .. تحمل الكثير من عتاد الحرب .. وعجلات تجرها الرجال وأخرى تجرها الخيول .. وخلق بلا عدد .. فوق مصاطب الحوانيت .. يدخنون النرجيلة .. يأكلون .. يتكلمون .. يصرخون .. يفحصون أسلحة .. أمامهم ذخيرة .. خناجر .. سيوف ..!!

لم يفزع حسن فقد اعتاد غلمان القاهرة مثل هذا منذ احتلال الفرنساوية للقاهرة .. لكن الدهشة ركبته .. لأن الذى يجرى الليلة .. كان شيئا غير مألوف .. لاسيما والفرنساوية كثيرا ما كانوا يحبسون الناس فى بيوتهم من غروب الشمس .. حتى شروق الفجر ..!

وفى غمار الدهشة .. يتحسس الدراهم فى جيبه .. تلك التى أعطتها له والدته .. لكى يشترى بها زيتا من خليل الزيات الذى يقع حانوته .. فى أول فم فتحة بيت القاضى وخلف خان الخليلى .. فقد بحثت عن طعام تعده لأطفالها يصلح عشاء لكنها لم تجد سوى حفنة من الدقيق .. قررت أن تصنع منها مع بعض الزيت ما يشبه العشاء تحتال به على الأطفال وتنام وإياهم حتى الصباح لكنها فوجئت بأن قدر الزيت فارغ .. ورغم خطورة المغامرة .. إلا أنها لم تجد مفرا من أن ترسله لكى يعود لها بكمية من الزيت .. ولولا خوفه من غضب والدته وعقابها الذى كثيرا ما تصحبه بالتهديد .. بالشكوى إلى والده .. الذى كثيرا ما يعلن عن تأييدها عمليا .. فيضيف إلى ركلاتها القديمة بعض اللكمات والنبابيت . وهكذا يعاقب مرتين على ذنب واحد .. وحتى يتفادى كل ذلك .. حمل القدر الفارغ تحت إبطه والدراهم فى جيبه وخرج .. فإذا بالدنيا غير الدنيا والليلة من ملامحها لا تبشر بنهاية طيبة ..!

حاول فى رغبة صادقة .. أن يعبر الطريق .. لكى يكون على مقربة من فتحة بيت القاضى .. تردد .. ثم همَّ فألقى بنفسه .. لكنه لمح كوكبة من عساكر الإنكشارية .. مقبلة فى فوضى سريعة .. تسوق أمامها بعض الخيول .. تسبقهم طائفة من المنادين

الحفاة .. الذين يمرقون بأسواطهم على الجانبين .. يوسعون لهم الطريق ولا يعنيهم .. إذا خلع طرف سوط أحدهم عين مواطن أو مملوك من الذين تزدحم بهم الطريق .. تحسس القدر الفارغ من جديد وتراجع حتى التصق بالجدار .. لكن جسد الشيخ سبقه إلى الجدار وأيقن أن الوصول إلى حانوت خليل الزيات لن يحدث وإذا حدث فلن يكون بلا خسائر إن لم تكن فى الأرواح .. فهى لابد فى الأموال .. ودون أن يدرى تأكد من وجود الدراهم فى جيبه ..

وعاد ينظر من جديد إلى الطريق .. وكما يلقى الإنسان بنفسه فى النيل .. ألقى حسن بنفسه فى نهر الشارع وراح يحاول الوصول مخترقا الجموع التى كانت متراصة .. لا تكاد تفرق بين الذاهب أو العائد .. وعلى الجانب الآخر لاحت له مصطبة حانوت العطار .. لكنها احتجبت وراء الأجساد وأحس كأنه يدور بين حجرى طاحون من البشر وأخيرا وجد نفسه على الجانب الآخر .. والقدر تحت إبطه لم يصب بسوء .. والدراهم تستقر فى جيبه .. لكن المفاجأة كادت تصيبه بالشلل فقد وجد نصف جلبابه منزوعا تماما فقد نصف جلبابه فى الازدحام .. الحقيقة أن الجلباب كان قديما لكنه لم يكن يتوقع أن يتخلى عنه بهذه السهولة .. وهى لم تكن سهولة فقد انهرس بين القوم ودار يمينا وشمالا .. لكن وعيه كان مركزا فى الحفاظ على القدر .. لذلك ضاع نصف ثوبه وضاع الجيب وضاعت منه الدراهم ولو حاول أن يصل إليه فقد يفقد نفسه دون جدوى .. وراح ينظر فى لوعة إلى وجوه الناس .. لكن أحدا لم ينتبه إليه ..!

لم يستطع أن يحدد ماذا عليه أن يفعل .. المستقبل مع والدته غامض تكتنفه المخاوف كأنه يركب فى زورق يغرق .. كل ظروفه تضعه الآن على أول مأساة رائعة .. وأخرجه من كارثته بعض الجنود .. يرفعون من فوق خيولهم .. مزرافين على كل منهما رأس .. أحدهما لشيخ له لحية سوداء والآخر حليق .. ومنذ النظرة الأولى خبأ وجهه بيديه وذهل عن القدر فسقط ليتحطم .. وأفزعه ذلك وأخذه المنظر .. فاستند على جدار حانوت « العطار » ورغم كل ما هو فيه .. إلا أن والدته وإخوته والعشاء الذى لن يحدث .. طاف بذهنه .. وغلبته دموعه يبكى مقدما لعلمه بما سيحدث له الليلة ..!!

حاول أن يعود .. لكنه فشل .. دفعه تيار الأجساد المتدافعة إلى نحو فتحة بيت القاضى ربما حاول أن يعود .. ووجد نفسه على مقربة من حانوت خليل الزيات خلف خان الخليلى وأحس بالكرب الشديد فقد كان الحانوت مغلقا وعجب لماذايداهمه هذا الشعور وهو لن يستفيد منه .. حتى لو كان مفتوحا .. وأسقط فى يده وأدرك عن يقين أن عودته من الشارع مستحيلة .. فقرر أن يخترق الحارات التى خلف جامع قلاوون إلى الخرنفش ثم يعود إلى بيرجوان من هناك .. وظل يتربص إلى أن عبر الطريق .. واندس فى

الحارة الطويلة .. كانت صامتة كالعهد بها .. لكن بين الحين والحين .. يوجد مشعل على قمة بوابة من البوابات .. كما تقضى تعاليم « الفرنساوية » وبعض المارة يهرولون .. كلهم يرتعدون .. يتوقعون أن يقبض عليهم .. الخوف سيد هذه الليلة والذعر هو الذى يحكم الجميع ..!

فقد تهيأ الكل للحرب ضد الفرنسيس .. معظم الأمراء المصريين ذهبوا مع نصوح باشا والعساكر العثمانية تابعوه إلى الأزبكية لمحاصرة بقايا معسكرات الفرنساوية رابط عثمان كتخدا فى الجمالية .. فى بيت قائد أغا .. وجمع الغندقلية والحدادين والعربجية وانهمكوا فى إعادة وإصلاح المدافع وصناعة القنابل وتعبئة الذخيرة ولم يستقر رجل فى بيته إلا إذا كان مريضا أو تعجزه عن القتال علة ظاهرة ..!

وانتشر أولاد القرافة والعامة وشبان الحسينية والعطوف فى خط باب النصر وعسكر عند باب البرقى إنكشارية باب الحديد .. وانضم إلى الجنود كل الأهالى فى شبه مقاومة شعبية .. تتجمع وتقف خلف المتاريس . لتصيد الفرنساوية إذا عادوا من بلبيس وكانوا قد خرجوا مع كبيرهم « كليبر » ولم يتركوا فى القاهرة .. إلا بعض معسكرات قليلة .. فى بيت الألفى والأزبكية والقلعة واعتبر عثمان كتخدا هذا المصنع هو مصدر الذخيرة للقاهرة كلها .. والناس يقفون على النواصى .. حى على الفلاح .. حى على قتال الفرنساوية وكل مندوب يصل من الأحياء لاستلام ذخيرة يلقاه الكتخدا بوجه بشوش وصدر رحب .. يجزل له العطاء ويحمله ما شاء من البارود والسلاح ..

وانتهز فرصة الاضطراب رجل مغربى يدعى « الشيخ الجبلاتى » يقود جماعة من المغاربة ومن المسلحين الوافدين وراح يطوف بجماعته وهم جميعا من المسلحين وحصلوا من الكتخدا على أسلحة جديدة وأشاع أنه كان يقاتل الفرنساوية فى البحيرة وأنهم يطالبون برأسه .. إلا أنه كان كثيرا ما ينهب ويسلب بعض المحلات مع رجاله بحجة أنهم يتعاونون مع الفرنسيس كما قتل الكثير من أبناء البلد بهذه الحجة .. ثم هجمت طائفة من العسكر العثمانلية على بيت « الشيخ البكرى » ومعهم بعض العامة والدهماء .. فنهبوا داره وأخرجوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية عارى الرأس حافى الأقدام وأهين إهانات بالغة فلما جيء به إلى عثمان كتخدا هاله ذلك الأمر وصرف الناس عنه وطيب خاطره وأرسله إلى بيت محمود محرم التاجر مع حريمه وأعيدت إليه كرامته وهيبته ..!

لكن كل هذا الذى يجرى لم يكن يعنى حسن منه شيئا .. الذى يعنيه الآن هو كيف يلقى أمه .. وماذا يقول لها وقد ضاعت منه الدراهم وذهب القدر ولم يعد بالزيت ..!

وبينما ينحدر من الخرنفش إلى بيرجوان .. عثرت قدمه فى الظلام .. داس على جلد ناعم .. به بعض الحديد .. مد يديه فى الظلام .. كان الجلد حزاما .. رفعه بيده .. كان

ثقيلا بعض الشيء أحاطه بيديه أدرك أنه جراب خنجر من المطعم بالفضة .. وتلفت حسن رغم وثوقه من أن أحدا لا يراه .. لكنها المعاناة .. ودس الحزام والخنجر تحت البقية الباقية من ملابسه .. واعتقد أن الله عوضه عن الدراهم التي فقدت منه .. وكاد يرقص من الفرحة والجلد يلامس جسمه وهو يقفز إلى بيتهم في حارة بيرجوان واندفع يهرول .. فكر أن يجرى .. لكن خشى أن يلفت الجرى نظر الناس إليه كما أنه لا يأمن أن يسقط الخنجر والحزام منه .. فاكتفى بأن أسرع . حتى دلف إلى منزلهم ..!

فوجئت أمه بما حدث في جلبابه .. فصاحت فيه . لكنه أسرع .. يخرج الحزام والخنجر من تحت ملابسه وبهرتها الزخرفة الفضية في المقبض والحزام ومكنت قبضتها منه فانتزعت الخنجر الذى كان لامعا لا يستعمل إلا في الزينة .. وانتهز « حسن » لحظة إعجابها .. فقال لها في سرعة ما حدث للدراهم ، « وللقدر » .. وعادت المرأة تجلس ، وقد أصيبت بخيبة أمل ضخمة .. تجاوزت فرحتها بالكنز الذى عثر عليه « حسن » فتركت الخنجر فوق جرابه وكلاهما يلمع تحت ضوء المشعل .. وجرى الألم يرسم نفسه على ملامحها .. وأحس « حسن » فتضاءل ، وكمن في مكانه .. لا يقوى على النظر في عينى أمه .. أخيرا قال لها في رجاء .

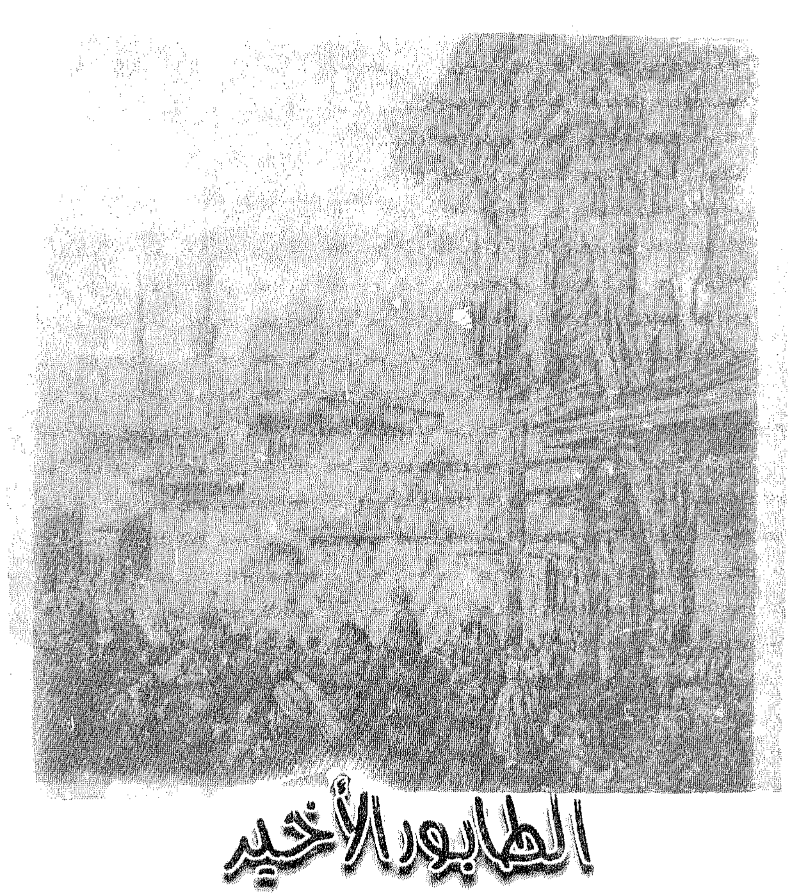
أمي .. أمي .. لا يقل ثمن الخنجر والحزام عن خمسين ديناراً ..؟

قالت وهى ترمق الخنجر :

اذهب فضعه على الدقيق ، وقدمه لإخوتك في العشاء ..!!

ونظر « حسن » إلى أمه .. ثم صمت ..!!

☆ ☆ ☆



الطابور الأخير



الطابور الأخيـر

*** * * فى الحلق مرارة هى العلقم .. والقلب ينوء .. يتألم .. تذرعه شرارات شرسة .. تجتاحه شرهة .. مفترسة .. تخنق بالقهر أمسياته .. تطعن بالغدر لياليه .. يرنو إلى « القلعة » بعينيه .. و « القاهرة » لا ترنو إليه .. حرمها المحتال عليه .. فالخصم هنا لاعب ماهر .. شديد المراس .. مقامر .. مغامر .. استخلصها لنفسه دون الآخرين .. وهو يتظاهر بأنه يصلح بين المتخاصمين ..!!**

من الممكن أن يشعر بما يحسه الآن ..! هذه الآلاف من الجنود ، والأمراء .. تحيط بموكبه ، ويبدو كأنه يختال مزهوا .. و « محمد على » يرقبه من البر الشرقى .. يحسده على تلك الطلعة الجليلة .. طبول تسبق ركبه ، وهو يسير بين صفين من الخيال ، ومن خلفه قبائل « أولاد على » على جمالهم ، ومئات المماليك بالملابس المزركشة سيوفهم مدلاة على جنوبهم ، ورجال لا يحصيهم العدد .. على أكتافهم بنادقهم .. وهو يسير وسط الموكب .. يقلد (بونابرته) عندما دخل « القاهرة » .. لكنه يسير على البر الغربى من « إمبابة » إلى « الجيزة » قادما من الدلتا بعد أن أقام فى « دمنهور » ثلاثة أشهر ..! لم يحدث أن سار أحد الأمراء فى مثل هذا « الطابور » فلم يكن هذا النظام معروفا قبل « الفرنسيس » ، ووقف « محمد على » يرقبه من البر الشرقى .. وهو يقول لمن معه وحوله :

هذا « طهماز » الزمان وإلا إيش يكون ..؟

وما توقعه الماكر حدث .. فقد حاول أن يحرض الجنود « الأرناؤوط » على أن يعبروا ، ويتصدوا لمسيرة « الألفى بك » لكن قلوبهم انخلعت وخارت من الخوف قواهم ، فما تحرك منهم رجل .. واكتفوا بالنظر ، ومضى « الألفى » مخترقا « الجيزة » حتى وصل إلى قنطرة « شبرامنت » .. هناك اختار ربوة عالية .. وأمر أن يحط الرحال ..!!

كان الشيخ مقهور الأحلام .. ممزق الوجدان .. فقد مع الأحلام التى يريدها .. القدرة على صنع أحلام جديدة .. وكانت الشمس تميل إلى المغيب ، وامتد الغروب إلى أعماقه .. وتحركت قبضة قوية تخلع القلب الذى يتنفس به من مكانه .. فى أول الأمر تصور أن ذلك وهم .. لكنه حينما حاول أن يهبط من على حصانه .. أدرك أن داخله يتهدم ..!

وأسرع الجنود يهيئون الخيام .. وأحس الأمراء ، « والخداشون » أن الأمير فى أزمة .. فاجتمعوا حوله .. لكن الطائر كان يقاوم ، والشمس تعانق قمم الأهرام ، والظلال تزحف فى إصرار .. لا تبالى أن تغطى خميلة ورد .. أو مستنقع ماء ..!

ومال على « شاهين بك » تلميذه ، وآخر المخلصين .. همس فى أذنه أن يستدعى طبيب الحملة .. وانطلق أحد الجنود ليعود بالطبيب ، وتفرق باقى الأمراء ، فالأمر ليس أكثر من « وعكة » .. وعلى النخلة التى ضربت خيمة الأمير تحتها .. كانت جماعة من « الغربان » تتقاتل .. وصرخت تنعق ، وسقط غراب من حالق .. ثم حاول أن يطير أو يحاول التحليق .. لكن قدراته خانته .. فصاح ينعق فى يأس ، ثم استسلم .. كان « الألفى بك » يرمق الغراب الذى يعطى نفسه للموت ، وهو يقاوم الآلام المدمرة التى تدك صدره .. لكنه لا يطوف بذهنه أن يتأوه أو يتكلم ..!

تحرق « شاهين بك » إلى الكلام .. لكنه احترم صمت الأمير ، والمعاناة الصامتة التى تنعكس آثارها على جبهته ، وبريق نظراته الذى بدأ يخبو .. ولونه الذى انحدر من الأحمر إلى الزرقة كأنه يختنق .. قال الأمير فجأة ..

- أريد أن أستريح ..!

ولم ينتظر ردا .. بل اضطجع على السرير الذى نصب له داخل الخيمة ، وهمهم « شاهين » بكلام ، كان على يقين من أن الأمير لم يسمعه .. فقد كانت اللحظة مشحونة بآلام تنوء بها الكرة الأرضية ..!

وأعاد « شاهين » حديثه واضحا لعل الأمير يجيبه فقال :

- ماذا بك يا أستاذ ..؟

قالها كأنه يقدم على مغامرة .. وانغرس السؤال فى قلب الأمير .. لكن لم يجد الخيط الذى يبدأ منه .. فإن ما به لا يقال ، ولا تتسع له الكلمات .. هزيمة .. ضياع .. غدر .. خيبة أمل .. على كل الجبهات .. الإنجليز خذلوه ، ولم يرسلوا إليه المدد الذى انتظره ثلاثة أشهر فى « دمنهور » ، والأمراء الذين تحصنوا بالوجه القبلى .. « إبراهيم بك » وجماعته والمرادية ، وكبيرهم « عثمان بك البرديسى » رفضوا عرضه .. رفضوا أن يضعوا أيديهم فى يده الممدودة إليهم ليزحزحوا « محمد على » من مشيخة البلد .. قالوها صريحة .. إنهم لا يأمنون على أنفسهم منه .. ولم يكن « محمد على » ينحنى أكثر من ذلك .. ومن أجل ذلك لم يستطع أن يعبر النيل إلى الشرق ، وأعلن أنه سوف يمضى إلى « الفيوم » حيث يبقى مع رجاله ، ومماليكه ، و « خداشينه » .. يبسط سلطانه على الإقليم إلى أن تنكشف الأمور ..!

هو الآن فى المنفى ..! هو الآن بعيد .. فى جزيرة من الكراهية ، وعدم الأمن ، وفقدان الثقة والخيانة .. أبناء جنسه المماليك « المصريون » يرفضونه ، و « محمد على » يتربص به ، والمرض المفاجىء العنيف الذى يدب الآن ، وبقوة فى أعماقه .. ممزوجا بالقهر ، مخلوطا بالإحباط .. يرغمه على الضعف .. يخشى أن يصيبه الشلل .. فيلقى أسوأ نهاية .. حتى على أيدى أقرب الناس إليه ..! يخشى ألا يجد بقية من العمر ساعات يصل فيها إلى « الفيوم » حيث تنتظره .. المرأة الوحيدة التى أحبها من بين زوجاته ، وجواريه .. « عزيزة الإسماعيلية » ..!

قبل أن يتحرك الركب من « وردان » أرسل هجانا على هجين ليبلغها فى « الفيوم » أن « الألفى بك » فى الطريق .. لم تكن « عزيزة » مجرد زوجة .. بل حبيبة وعاشقة ، وخليلة للرجل الذى كان يصنع الأمراء .. كانت من جوارى « إسماعيل بك » اشتهرت بجمال الصوت ، والعزف على العود .. فلما استمع إليها فى حفل كان يقيمه « إسماعيل بك » لزواج ابنته .. أعجب بها .. فأهداها إليه سيدها .. فأعتقها « الألفى » وتزوجها .. لم تحفظ له الجميل فقط ، وإنما ترجمت ذلك إلى حب ، وحنان ، ورعاية .. نفذت بها إلى أغوار الرجل الوحيد ، الذى يقف وحده فى صحراء الحياة .. رغم كل ما يعوم فيه من ثراء .. « فالألفى » كان لا ينسى أنه أحد المماليك .. مخطوف مباع بلا جذور . فإذا ما جلست إليه استغنى بها عن الدنيا .. أعطته ما يجعله يشعر أنه من الدنيا ، والدنيا أسرته ، وأنه عميق الجذور ، وجذوره تبدأ به .. بينما جذور كل الناس تنتهى بهم .. هكذا قالت له . حينما شكى إليها فى لحظة ضعف .. فصاغت هذا المعنى شعرا وغنته له .. فقام يعانقها ويبكى كطفل .. فإذا ما حبس نفسه يوما كاملا بعيدا عن متاعب الحكم ، والمحكومين .. وكثيرا ما كان يفعلها .. ناداها « ماما » ، وكان الرجل الذى يحبس الرجال أنفاسهم فى حضوره .. يسعده أن يغزو النوم عينيه ، وهو يستلقى على صدرها ..! تغنى له حتى ينام كطفل لم يبلغ الفطام بعد ..!

ضج الصمت بالصخب ، وخشى « شاهين بك » أن يكون صمت الأمير جزءاً من غضبه عليه .. فأعاد سؤاله فى نبرة رجاء :

– سلمك الله يا أستاذ .. ماذا بك ..؟

لكن الأمير الذى يتهدم كبئر قديم من الداخل لم يجب بل سأله :

– شاهين ..!

– أفندم .. أبقى الله أميرنا وأستاذنا ..

– هل جاء الطبيب ؟

- سوف يصل حالا يا أمير .. أوامركم أدام الله عزكم ..

- أرسل إلى « الفيوم » الآن ، واحمل إلينا زوجتنا « عزيزة هانم أفندى » ..

- سمعا وطاعة

وقف « شاهين بك » ، وهو على يقين من أن شيئا هاما سوف يحدث خلال الساعات القادمة .. خرج من الخيمة .. فكلف كبير الحرس بأن ينفذ الأمر الخاص بالطبيب ، والخاص بمن يعود من « الفيوم » بالأميرة « عزيزة الإسماعيلية » .. وحينما كان يعود إلى حيث الأمير .. استمع إليه ، وهو يغالب ، وينازع القيء ، وخيط من الدماء يسيل من فمه .. وأسرع يحتضنه ، وكان الطبيب يقتحم الخيمة ..!!

أخرج الطبيب بعض الأعشاب من جرابه ، وغلاها .. ثم أصر على أن يقوم بفصد جبهة الأمير لإخراج الدم الفاسد .. فقد ابتلع الأمير غضبه المر فسمم جسده .. هكذا كان تشخيص الطبيب .. ولكن القيء هاجم الأمير مرة أخرى ، وكانت قطع حمراء من الدم .. كأنما كبد الأمير فتته القهر ..!

ودخل بعدها فى غيبوبة .. فلما أفاق منها .. همس ، وعيناه شبه مغمضتين .. شاهين .. هل أحد معنا هنا ..؟ قال له الطبيب : أنا وأنت فقط يا أمير .. فاستمر يهمس .. سوف أموت فلا تدفنني إلا فى « البهنسا » ، وأدخل على الآن كبار قادة الجند ، وأساتذة المماليك ، لكى أوصى لك بقيادة جماعتنا ، والأستاذية .. وأن تكون لك الطاعة دون سواك ..!

وأرتج على « شاهين » .. فبكى .. ولكن الطبيب قال أسرع « يا شاهين بك » فالوقت قد حان ، والله يعوضنا خيرا فى أميرنا ..!!

وحمل « النعش » على هجين ، وسار الموكب الحزين يقطع الطريق إلى « البهنسا » .. وذعرت « عزيزة هانم أفندى » من الرسول الأخير ، وخرجت مع القافلة ، وعلى الطريق شهدت المشهد الرهيب .. كان الأمير على جمل مجلل بالسواد ، وحوله خيالة يدقون على طبولهم الدقات الحزينة ، وأعلام سود على ظهور وسروج الخيول .. وتوقفت .. لم تجد كلمة على لسانها ، ولم تجد فى عينيها دمعة تذرفها .. ظلت شاخصة .. فلما انتهى الطابور سارت بقافلتها فى آخره ..!!



فهـــرس

صفحة

☆ ☆ ☆

كتب صدرت للمؤلف

* الجلسة سرية	الدار القومية .
* الجنس والجريمة - قاتل اسمه اللذة	دار الهلال .
* الجريمة فى الرواية العربية - الجميلات يذهبن إلى المحكمة	دار الهلال .
* رواية « نساء من باب الشعرية »	دار الهلال .
* دماء على عقد عمل	دار التراث .
* قلوب فى المحكمة	دار التراث .
* غيـــر صـــالح للـــزواج	أخبار اليوم .
* دع القلق ابدء الزواج	أخبار اليوم .
* رجال من مكة	دار الشعب .
* كنت قبوريا	دار الإفتاء بالسعودية .
* الزواج فى قفص الإتهام	بيروت .

تحت الطبع

* الحب عند رسول الله ... السيرة النبوية من منظور الحب .
* شخصيات من الطبقات [كرام من طبقات الصحابة لم تسلط عليهم الأضواء] .
* وداعا سى السيد .. جرائم نسوة قتلن أزواجهن .
* الراقصة والحزب ... رواية نشرت فى مجلة الكواكب .
* القبوريون يتساقطون .
* أيام المقاومة الفلسطينية .

رقم الايداع بدار الكتب :	٣٠٦٥ / ١٩٩٩م
الترقيم الدولى:	I.S.B.N .977-202-146-3

مؤسسة دار الشعب





هذا الكتاب

هذه المساحة تعودنا أن تخصص لتقديم المؤلف إلى القارئ . إلا أنه يغلبني التواضع والاستحياء أن أفعلها مع القارئ . فهو أذكى من أن أقدم له « عبد المنعم الجداوى » الذى يقرأ له فى الصحف العربية عامة والصحف المصرية خاصة منذ نصف قرن..

فكاتبنا أنشأ فى الصحافة العربية مدرسة لكتابة أدب الجريمة ، قوامها التحليل النفسى ، ودراسة الدوافع ، والبواعث عند الجانى ، وعكف على دراسة الجريمة فى أدب « نجيب محفوظ » ومازال كتابه « الجريمة فى الرواية العربية » من أوسع الكتب التى أصدرتها « دار الهلال » توزيعا ..

تتامذ على كتاباته للجريمة عشرات من الصحفيين الشبان فى مصر والبلاد العربية يسيرون على نهجه ، ويتبارون فى كتابة الجريمة بأسلوب أدبى لايغفل ظروف المتهم الاجتماعية والنفسية .

أصدر أكثر من عشرين كتابا معظمها يدور حول الجريمة ، ومن دوائر الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والطلاق . ومن هذه الكتب : « النساء يقتلن هكذا » ، و« الجميلات يذهبن إلى المحكمة » ، وآخر كتبه « دع القلق ، وابدأ الزواج » ، أصدرته « أخبار اليوم » وأصدرت له « دار الشعب » فى السبعينات كتاب « رجال من مكة » وهو عن بعض الصحابة الذين عاشوا ، وماتوا فى الظل .

دار الشعب